المنهج القويم

في

تفسير القرآن الكريم

دراسة نظرية تطبيقية لسورة الحجرات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

مؤسسة الرسالة
للطباعة والنشر والتوزيع
وطى المصيطبة
شارع حبيب أبي شهلا
بناء المسكن
تلفاكس: (٩٦١١)
٨١٥١١٢ _ ٣١٩٠٣٩ _ ٦٠٣٢٤٣
ص.ب. :١١٧٤٦٠
برقياً: بيوشران
بيروت _ لبنان

Al-Resalah
PUBLISHERS
BEIRUT
LEBANON
Telefax: (9611)
815112 - 319039 - 603243
P.O. Box: 117460
E-mail:
Resalah@cyberia.net.lb
Web Location:
Http://www.resalah.com

المنهج القويم
في
تفسير القرآن الكريم

دراسة نظرية تطبيقية لسورة الحجرات

د. عادل محمد صالح أبو العلا

رئيس قسم الدراسات الإسلامية
بكلية الآداب
جامعة الملك عبد العزيز

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الهادي من استهداه، الكافي من تحرّى رضاه، وأفضل الصلاة والسلام على سيدنا محمد نبيِّه ومصطفاه، وآله ومَن والاه.

أما بعد.

فإن القرآن الكريم دستور الإسلام، والمعجزة العظمى لخير الأنام، وإنه كلما توثّقت صلة المسلمين به كانوا سادةً أعِزّة، وكلما ضعفت صلتهم به كانوا ضعفاء أذلّة، وإنه لا بد لك أيها المسلم أن تتفهم كتاب الله لتعمل به، ولا يحصل هذا الفهم إلا لمن اتبع المنهج الصحيح لتفسير كتاب ربه.

وقد جاء هذا الكتاب يبين هذا المنهاج نظرياً بإيجاز يخفُّ على الطالب المقتصد، ويتحرى الصواب الذي قرره أهل العلم. ثم إن هذا الكتاب يُتبع النظرية بالتطبيق في تفسير سورة الحجرات، فزادت بذلك فائدته، وكثُرت خيراته.

اللهم أجزل مثوبة مؤلفه، وانفع العلم والدين به، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه، وسلامٌ على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

دمشق ٢٠ ربيع الأول ١٤١٩
١٣ تموز ١٩٩٨

كتبه
الأستاذ الدكتور نور الدين عتر
رئيس قسم علوم القرآن والسنة في
كلية الشريعة بجامعة دمشق

المقدمة

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على مُعلم العلوم والحكم، وعلى آله وصحبه ذوي الفضل والكرم، ومن اقتفى أثرهم إلى يوم يجمع الله الخلائق والأمم، وبعد... فإن من أعظم علوم الشريعة علم التفسير فهو أعلاها شأناً، وأقواها برهاناً، وأوثقها بنياناً، وأوضحها تبياناً، كيف لا؟ وموضوعه الكتاب المجيد الذي هو عُمدة الملة، وينبوع الحكمة، وآيةُ الرسالة.

قال الإمام (الراغب الأصفهاني رحمه الله)[1] في بيان شرف علم التفسير: «أشرف صناعة يتعاطاها الإنسان تفسير القرآن وتأويله».

وذلك أن الصناعات إنما تشرف بأحد ثلاثة أشياء:

- إما بشرف موضوعاتها، وهي المعمول فيها، نحو أن يقال: الصياغة أشرف من الدباغة. وإما بشرف صورها، نحو أن يقال: طبع السيوف أشرف من طبع النقود. وإما بشرف أغراضها وكمالها - كصناعة الطب - التي غرضها إفادة الصحة فإنها أشرف من الكناسة التي غرضها تنظيف المستراح.

فإذا ثبت ذلك: فصناعة التفسير قد حصل لها الشرف من الجهات الثلاث، وهو أن: **موضوع التفسير كلام الله تعالى**: الذي هو ينبوع كل حكمة، ومعدن كل فضيلة.

وصورة فعله: إظهار خفيات ما أودعه منزله من أسراره ليدبروا آياته، وليتذكر أولو الألباب.

---

(١) الراغب الأصفهاني: من أئمة أهل السنة، أديب من الحكماء العلماء، من أهل أصفهان، سكن بغداد، واشتهر حتى كان يقرن بالإمام الغزالي، رد على المعتزلة والجبرية والعذرية، وفنَّد أقوالهم بالأدلة العقلية والنقلية، كما ورد ذلك في كتابه «المفردات في غريب القرآن» في مادة «جبر» وكتابه هذا يعتبر من أشهر كتبه، وله أيضاً العديد من المؤلفات مثل كتاب «الذريعة إلى مكارم الشريعة»، «ومحاضرات الأدباء»، و«جامع التفاسير»، وقد طبعت مقدمته، وأخذ عنه البيضاوي في تفسيره، توفي سنة ٥٠٢ هجرية.

انظر «المفردات في غريب القرآن» بتحقيق محمد سيد كيلاني، طبعة دار المعرفة ص٣، «الأعلام» للزركلي ٢/ ٢٢٥، طبعة دار العلم للملايين.

وغرضه: التمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، والوصول إلى السعادة الحقيقية التي لا فناء لها. ولهذا عظم الله محله بقوله: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[١] قيل هو تفسير القرآن»[٢] أ ـ هـ[٣].

هذا، وقد أسند لي قسم الدراسات الإسلامية تدريس مادة التفسير المستوى الأول (٢١٣) منذ خمس سنوات تقريباً.

فرأيت في دليل القسم ما نصه: يدرس الطالب مقدمة في التفسير والمفسرون مدارسهم ومناهجهم، ومن ثم تفسير سورة الحجرات. . . .

وكنت قد ألقيت محاضرات حول هذه المقدمة على طلبة قسم الدراسات الإسلامية، وقد جمعتها لينتفع بها طلاب العلم، وسميتها «**المنهج القويم في تفسير القرآن الكريم دراسة نظرية تطبيقية لسورة الحجرات**».

ثم استخرت الله تعالى في طبعها ليستفيد منها من يطلع عليها عملاً بحديث رسول الله ﷺ: «**إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: صدقة جارية، أو علمٍ يُنتفع به، أو ولدٍ صالح يدعو له**»[٤].

أسأل الله أن يجعل فيها النفع لكل من اطلع عليها، وأن يجعلها خالصه لوجهه الكريم إنه سميع مجيب.

د. عادل محمد صالح أبو العلا

جده ١٨/ ٩/ ١٤١٨هـ

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٩.

(٢) انظر «تفسير القرطبي» ٣/ ٣٣٠، «زاد المسير» لابن الجوزي ١/ ٣٢٤، «تفسير النسفي»: ١/ ١٢٥.

(٣) انظر تفسير القاسمي «محاسن التأويل» تأليف محمد جمال الدين القاسمي (١/ ٣٤٩) ط. دار الفكر الثانية سنة ١٣٩٨هـ.

(٤) «صحيح مسلم» بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي حديث رقم (١٦٣١)، (٣/ ١٢٥٥) كتاب الوصية. ورواه الترمذي حديث رقم (١٣٧٦)، (٣/ ٦٦٠)، والنسائي (٦/ ٢٥١)، والإمام أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٧٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

التفسير

التفسير لغة: مصدر فسّر بتشديد السين مأخوذ من الفسْر بسكون السين: بمعنى البيان، قال تعالى ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[(١)] أي بياناً وتفصيلاً وقيل مقلوب من السفْر بسكون الفاء، يقال أسفر الصبح إذا أضاء ففيه معنى الكشف والتوضيح[(٢)].

التفسير اصطلاحاً: عرفه الزركشي في «البرهان»: «علم يُفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه»[(٣)].

---

(١) الفرقان: الآية ٣٣.

(٢) انظر «مفردات ألفاظ القرآن»: العلامة الراغب الأصفهاني ٤٢٥هـ، مادة: «فسر»، ٦٣٦، تحقيق: صفوان عدنان داودي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م. يقع في مجلد واحد.
وانظر: «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» لمجد الدين محمد ابن يعقوب الفيروز آبادي ٨١٧هـ، تحقيق: محمد علي النجار، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة ١٣٨٥هـ. ٢/ ٣٣١، يقع الكتاب في ٦ مجلدات.

(٣) «البرهان في علوم القرآن» للإمام بدر الدين بن عبد الله الزركشي ولد سنة ٧٤٥هـ، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (١/ ١٣) ط البابي الحلبي ـ الثانية =

التأويل لغة: أصله من الأول وهو الرجوع، فكأن المؤول للآية رجع بها إلى ما تحتمله من المعاني[(١)].

التأويل اصطلاحاً: قال أبو عبيد القاسم بن سلاَّم[(٢)] وطائفة من العلماء: التأويل والتفسير بمعنى واحد، وعلى هذا يعرف بما عُرف به التفسير.

وقد أنكر ذلك بعض العلماء بل بالغوا في الإنكار.

فقال الراغب الأصفهاني في مفرداته: «التفسير أعم من التأويل، وأكثر استعمالاته في الألفاظ ومفرداتها، وأكثر استعمال التأويل في المعاني والجمل»[(٣)].

= ١٩٧٢م. وانظر «الإتقان في علوم القرآن» للحافظ جلال الدين السيوطي ٩١١هـ، ٢/ ١٧٤، مطبعة حجازي، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٣٦٠هـ ١٩٤١م.

(١) انظر «مفردات ألفاظ القرآن»: ٩٩، مادة: «أول»، وانظر «بصائر ذوي التمييز»، ترجمة ٢/ ٢٩٠.

(٢) أبو عُبيد القاسم بن سَلاّم الهروي الأزدي الخزاعي بالولاء الخراساني البغدادي، من كبار العلماء بالحديث والأدب والفقه، رحل إلى بغداد فولّي القضاء، ورحل إلى مصر فسمع الناس من كتبه، وحج، وتوفي في مكة سنة ٢٢٤هـ، وله مؤلفات عديدة من أشهرها «الغريب المصنف في غريب الحديث» طبع في مجلدين وهو أول من صنف في هذا الفن، «وأدب القاضي»خ، و«فضائل القرآن»خ(أ)، انظر «تهذيب التهذيب» ٨/ ٣١٥ لابن حجر العسقلاني، «الأعلام» لخير الدين الزركلي ٥/ ١٧٦. أ. هـ.

(٣) انظر «مفردات ألفاظ القرآن» للراغب الأصفهاني: ٩٩ و ٦٣٦.

(أ) طبع حديثاً في المغرب بأمر من الملك الحسن الثاني أعزه الله في مجلدين تحت إشراف وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بتحقيق الأستاذ أحمد بن عبد الواحد الخيّاطي ١٤١٥ ـ١٩٩٥م. =

وقال بعض العلماء: التفسير يتعلق بالرواية، والتأويل يتعلق بالدراية (أي التفسير بالرأي والاجتهاد) ومهما يكن من شيء، فقد شاع واشتهر أن التفسير أعمُّ من أن يكون بالمأثور أو بالرأي والاجتهاد، وأعمُّ من أن يكون متعلقاً باللفظ أو بالمعنى.

الحاجة إلى علم التفسير

علم التفسير من العلوم المهمة التي يجب على الأمة تعلمها، وقد أوجب الله على الأمة حفظ القرآن، وكذلك أوجب عليهم فهمه وتدبر معانيه، قال تعالى:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[١]

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٢].

والآيات السابقة تحث على تدبر القرآن، وتدبر القرآن بدون فهم معانيه غير ممكن، لأن فهم معانيه إنما يكون بمعرفة تفسيره، فتفسير القرآن فرض على الأمة، ولكنه فرض كفائي، فإذا قام به أهل العلم المتأهلون له من الأمة الإسلامية سقط عن الباقين.

أوجه التفسير

للتفسير أربعة أوجه:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: التفسير على أربعة أوجه:

---

(١) النساء: الآية ٨٢.

(٢) ص: الآية ٢٩.

١ـ وجه تعرفه العرب من كلامها.

٢ـ وجه لا يعذر أحد بجهالته.

٣ـ وجه يعلمه العلماء.

٤ـ وجه لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى[١].

ما هي أحسن طرق التفسير؟

يقول ابن تيمية رحمه الله:

«أحسن طرق التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أُجمِلَ في مكان فإنه قد فُصِّل في موضع آخر وما اختصر في مكان فقد بُسِطَ في موضع آخر، فإن أعياك ذلك، فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، لقول الإمام الشافعي رحمه الله: «كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن» لقوله تعالى:

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا﴾[٢]».

وقوله ﷺ: «**ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه**» يعني السُّنَّة، فإن لم نجد في القرآن ولا في السُّنَّة تفسيراً رجعنا إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك، لما شاهدوه، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح،

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: جمع وترتيب: عبد الرحمن محمد بن قاسم النجدي الحنبلي: ١٣/ ٣٨٤، طبع بأمر صاحب الجلالة الملك سعود بن عبد العزيز آل سعود، الطبعة الأولى ١٣٨١ الرياض، يقع في ٣٥ مجلداً.

(٢) النساء: الآية ١٠٥.

ولا سيما كبراؤهم، كالأئمة الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، كعبد الله بن مسعود[١] رضي الله عنه، الذي روي عنه قوله: (والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته).

ومنهم كذلك حبر الأمة عبد الله بن عباس[٢] رضي الله عنهما، الذي دعا له رسول الله ﷺ فقال: «**اللهم فقِّهه في الدين وعلِّمه التأويل**».

فإذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا عن الصحابة فيرجع إلى أقوال التابعين كمجاهد[٣].

---

(١) عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن شمخ بن فار بن مخزوم، الإمام الحَبْر، فقيه الأمة، أبو عبد الرحمن الهُذلي المكي المهاجريُ البدري، حليف بن زهرة، من السابقين الأولين، النجباء العالمين، شهد بدراً، وهاجر الهجرتين، ومناقبه غزيرة.
انظر «سير أعلام النبلاء» (١/ ٤٦١) للإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، المتوفى سنة ٧٤٨ هـ.

(٢) عبد الله بن عباس: هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، القرشي، الهاشمي، ابن عم رسول الله ﷺ، ولد بمكة بالشعب، فأتي به النبي ﷺ فَحَنَّكه بريقه، وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين، ولازم النبي ﷺ في صغره، وتوفي رسول الله ﷺ وله من العمر ثلاث عشرة سنة، فلازم كبار الصحابة، وأخذ عنهم، وكانت وفاته سنة ثمان وستين، وله من العمر سبعون سنة، مات بالطائف ودفن بها، وكان يلقب بالحَبْر والبحر لكثرة علمه. انظر «أسد الغابة»: ١٩٢ـ١٩٥.

(٣) مجاهد بن جَبْر المكي، مولى السائب بن أبي السائب، ولد سنة (٢١)، وهو من المبرزين من تلاميذ ابن عباس وأكثرهم ملازمة له، قال الفضل بن ميمون: سمعت مجاهداً يقول: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين عرضة. وعنه أيضاً قال: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات أقف عند كل آية (عرض=

والحسن البصري(١).

وسعيد بن جبير(٢).

وعكرمة(٣).

وعطاء(٤).

= تفسير) وأسأله عنها فيم نزلت؟ وكيف كانت؟ ولذا قال الإمام سفيان الثوري عنه: إذا جاءك التفسير من مجاهد فحسبك، وقال ابن تيمية: ولذا يعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري وغيرهما من أهل العلم.

(١) الحسن البصري: هو أبو سعيد الحسن بن يسار البصري، مولى الأنصار، وأمه خيرة مولاة السيدة أم سلمة أم المؤمنين، ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر، ونشأ بوادي القرى، وكان فصيحاً، ورعاً زاهداً مأموناً، عابداً ناسكاً، كثير العلم، جميلاً وسيماً، وقيل: إنه أفضل التابعين. وكانت وفاته سنة عشر ومئة.

(٢) سعيد بن جُبَير: هو أبو محمد، سعيد بن جبير بن هشام الأسدي، كان حبشي الأصل، أسود اللون، أبيض الخصال، سمع عن جماعة من كبار أئمة الصحابة، روى عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما، وكان من كبار التابعين ومتقدميهم في التفسير والحديث والفقه، قتل في شعبان سنة ٩٥ هـ وهو ابن تسع وأربعين سنة. انظر «تهذيب التهذيب» (٤/ ١٣ ـ١٤).

(٣) عكرمة: هو أبو عبد الله عكرمة البربري، مولى ابن عباس، أصله من البربر بالمغرب، روى عن مولاه، وعلي بن أبي طالب، وأبي هريرة، وغيرهم، رضي الله عنهم، وقد اختلف العلماء في توثيقه، والذي أرجحه أن عكرمة كان أميناً في روايته، مقدَّمٌ في علمه، مبِّرزٌ في فهمه لكتاب الله... كيف لا يكون كذلك وهو وارث علم ابن عباس، توفي رحمه الله سنة ١٠٤ هـ. انظر «تهذيب التهذيب» (٧/ ٢٦٣ ـ٢٧٣)، «التفسير والمفسرون» للدكتور محمد حسين الذهبي (١/ ١٠٧ ـ١١٢).

(٤) أبو محمد عطاء بن أبي رباح المكي القرشي مولاهم، ولد سنة سبع وعشرين، وتوفي سنة أربع عشرة ومئة من الهجرة، كان ـ رحمه الله ـ أسود، أعور، أفطس، أشلَّ، أعرج، ثم عمي بعد ذلك، روى عن ابن عباس، وابن عمر، وغيرهم، وحدث عن نفسه أنه أدرك مئتين من الصحابة انظر «تهذيب التهذيب» ٧ / ١٩٩ .

ومسروق[١].

وسعيد بن المسيب[٢] وغيرهم، والله أعلم[٣]

أقسام التفسير

التفسير المعتمد عند جمهور العلماء (سلفاً وخلفاً) ينقسم إلى قسمين:

١ـ التفسير بالمأثور.

٢ـ التفسير بالرأي.

---

(١) هو ابن الأجدع، الإمام القدوة، أبو عائشة الوادعي الهَمْداني الكوفي.
قال أبو بكر الخطيب: يقال: إنه سُرق وهو صغير، ثم وُجد فسمِّي مسروقاً، وعده من كبار التابعين.
وقال أبو داود: مسروق هو ابن أخت عمرو بن معد بكر.
وروى شعب عن أبي إسحاق: حجّ مسروق فلم ينم إلا ساجداً على وجهه حتى رجع. أ. هـ.
انظر «نزهة الفضلاء» و «تهذيب سير أعلام النبلاء» للإمام شمس الدين بن محمد بن أحمد الذهبي. تحقيق محمد حسن عقيل موسى ١/ ٣٣٢ رقم ١٧٢. الناشر دار الأندلس.

(٢) سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن عائذ بن عمران بن كعب بن لؤي القرشي المخزومي المدني، يكنى أبا محمد، مات سنة ثلاث وتسعين، وكان من سادات التابعين فقهاً وورعاً أ. هـ.
انظر كتاب «ذكر أسماء التابعين ومن بعدهم ممن صحت روايته عن الثقات عند البخاري ومسلم» تخريج أبي الحسن علي بن عمر بن أحمد الدار قطني المتوفى سنة ٣٨٥ هـ. تحقيق بوران الضناوي، كمال يوسف الحوت (١/ ١٤٧) ط مؤسسة الكتب الثقافية.

(٣) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية»: كتاب مقدمة التفسير: ١٣/ ٣٦٣ـ٣٦٨.

١ـ التفسير بالمأثور.

تعريفه: المأثور: اسم مفعول من أثرت الحديث أثراً ـ على وزن قتلت قتلاً ـ أي نقلته.

والأثر: اسم منه، وحديث مأثور: أي منقول.

فالتفسير بالمأثور: أي بالمنقول سواء أكان متواتراً أم غير متواتر.

المأثور في الاصطلاح:

هو تفسير القرآن بما جاء في القرآن الكريم أو السنة أو أقوال الصحابة أو أقوال التابعين من كل ما هو بيان لمراد الله تعالى من نصوص القرآن.

ـ مثال لتفسير القرآن الكريم بالقرآن:

قوله تعالى في سورة الفاتحة:

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[١].

فقد فُسر (المنُعَم عليهم) بقوله تعالى:

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾[٢].

---

(١) سورة الفاتحة: الآية ٦، ٧.
(٢) سورة النساء: الآية ٦٩.

- مثال لتفسير القرآن بالسنة:

- قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[١].

روى الإمام أحمد، والشيخان، وغيرهم، عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: لما نزلت هذه الآية شق ذلك على الصحابة فقالوا: يا رسول الله وأيُّنا لم يظلم نفسه فقال ﷺ: «إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[٢] إنما هو الشرك»[٣].

- مثال لتفسير القرآن بأقوال الصحابة رضوان الله عليهم:

قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾[٤].

روي عن ابن عباس في «صحيح البخاري» أنه قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال: لم يدخل هذا معنا، وإن لنا أبناء مثله؟.

فقال عمر: إنه ممن علمتم، فدعاهم ذات يوم، فأدخلني معهم، فما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم، فقال عمر: ما تقولون في قول الله

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٨٢.
(٢) سورة لقمان: الآية ١٣.
(٣) الحديث أخرجه البخاري في الإيمان: ٢٣، والأنبياء: ٤١،٨، وفي تفسير سورة الأنعام، وأخرجه مسلم في الإيمان رقم ١٩٧، وأخرجه الإمام أحمد في «مسنده»: ١/ ٣٧٨، ٤٣٤-٤٤٤.
(٤) سورة النصر: الآية ١.

تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونشكره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال عمر لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا .... فقال: ما تقول؟.

فقلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ فذلك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾(١) فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول(٢).

- مثال تفسير القرآن بقول التابعي:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾(٣) قال مجاهد(٤) العقود: العهود.

قال تعالى: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾(٥).

قال الحسن(٦) وقتادة(٧): هي (الإبل والبقر والغنم).

---

(١) سورة النصر: الآية ٣.
(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة «إذا جاء نصر الله»: ١١٠، رقم ٤٩٧٠.
(٣) سورة المائدة: الآية ١.
(٤) سبقت ترجمته انظر ص١٢.
(٥) سورة المائدة: الآية ١.
(٦) سبقت ترجمته انظر ص ١٢.
(٧) قتادة بن دِعامة: هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة السدوسي الأكمه (ولد أعمى) عربي الأصل، كان يسكن بالبصرة، روى عن بعض الصحابة والتابعين، وكان واسع الإطلاع في الشعر العربي، بصيراً بأيام العرب، عالماً بأنسابهم، متضلعاً باللغة العربية، وقد اكتسب شهرة في التفسير، وقال فيه سعيد بن المسيب: (ما رأيت عراقياً أحفظ من قتادة) وقد احتج به أصحاب الكتب الستة، وكانت وفاته سنة ١١٧هـ.

٢ـ التفسير بالرأي والاجتهاد:

تعريفه: المراد بالرأي هنا الاجتهاد، أي تفسير آيات القرآن بالاجتهاد حسب الأصول والقواعد التي بها يتوصل إلى معرفة الصواب.

آراء العلماء في التفسير بالرأي:

اختلف العلماء في التفسير بغير المأثور، فذهب قوم إلى أنه لا يجوز لأحد أن يتعاطى تفسير شيء من القرآن، وإن كان عالماً أديباً، متسعاً في معرفة الأدلة والفقه والنحو والأخبار والآثار، وليس له أن ينتهي إلا إلى ما روي عن النبي ﷺ أو صحابته الآخذين عنه ومن أخذ عنهم من التابعين.

وأجاز فريق آخر تفسير القرآن بالرأي والاجتهاد، وهم أكثر السلف الصالح من العلماء[(١)].

أدلة القائلين بعدم جواز التفسير بالرأي والاجتهاد:

١ـ ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من قال في القرآن برأيه فأصاب، فقد أخطأ» رواه أبو داود[(٢)]، والترمذي[(٣)]، وقال: غريب، والنسائي.

---

(١) للمزيد انظر «مناهل العرفان في علوم القرآن»: للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، ٢/ ٦١، طبعة دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان ١٤١٦هـ ـ١٩٩٦. يقع في مجلدين.

(٢) «سنن أبي داود» (٤/ ٦٤) إعداد وتعليق عزت الدعاس و عادل السيد.

(٣) «سنن الترمذي» (٥/ ٢٠٠) حديث رقم (٢٩٥٢) تحقيق إبراهيم عوض. ط البابي الحلبي بمصر

ورواية أبي داود: «من قال في كتاب الله عز وجل برأيه فأصاب، فقد أخطأ».

٢ـ ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «اتقوا الحديث علي إلا ما علمتم، فمن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار، ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار» رواه الترمذي(١) وأبو داود(٢).

ورواية أبي داود بلفظ: «من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار».

٣ـ ما روي عن السلف الصالح من الصحابة فمن بعدهم من التحرج من الكلام في تفسير القرآن، فمن ذلك ما رواه ابن أبي مليكة(٣) قال: سئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن تفسير حرف من القرآن، فقال: «أيُّ سماء تظلُّني، وأيُّ أرض تُقِلُّني، وأين أذهب، وكيف أصنع، إذا قلت في حرف من كتاب الله بغير ما أراد الله».

---

(١) «سنن الترمذي» (٥/ ١٨٣)، بتحقيق أحمد محمد شاكر ط الأولى بيروت ١٤٠٨ هـ.

(٢) «سنن أبي داود» (٤/ ٦٣) اعداد وتعليق عزت الدعاس، عادل السيد ط/ دار الحديث حمص ـ سوريا.

(٣) ابنُ أبي مُليكة: هو عبد الله بن عُبيد الله بن أبي مُليكة، الإمام الحُجة الحافظ، الأحول، المؤذن، ولد في خلافة عليٍّ أو قبلها. وحدّث عن عائشة أم المؤمنين وأختها أسماء وابن عباس وابن عمر وابن الزبير.. وغيرهم. وكان عالماً مفتياً صاحب حديث وإتقان، معدود في طبقة عطاء، وقد ولي القضاء لابن الزبير، والأذان أيضاً، وثقه أبو زرعة، وأبو حاتم، قال البخاري وجماعة: مات سنة سبع عشرة ومئة.

انظر «سير أعلام النبلاء» للإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي. (٥/ ٨٨) ط الأولى مؤسسة الرسالة.

وفي رواية: «إذا قلت في كتاب الله بما لا أعلم».

مناقشة هذه الأدلة:

وقد ناقش المجوزون للتفسير بالرأي والاجتهاد هذه الأدلة، فقالوا:

١ ـ أما الحديث الأول ففي صحته وثبوته نظر، لأن أحد رواته وهو سهيل ابن أبي حزم[١] القطيعي قد تُكُلِّم فيه، وعلى فرض صحتهما (الروايتين) فقد أجاب عنهما العلماء بما يأتي:

أ ـ أن المراد من يقول في القرآن بمجرد رأيه وهواه[٢] بأن يجعل الرأي أصلاً والقرآن تابعاً، وذلك بأن يكون له في المسألة رأي، وإليه ميل بطبعه وهواه، فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه، ليحتج به على تصحيح غرضه، ولو لم يكن ذلك الرأي والهوى مقصوداً من القرآن حتى وإن

---

(١) سهيل بن أبي حزم، واسمه مِهْران، أخو حزم أبي حزم القُطعيِّ. قال الامام أحمد بن حنبل: روى عن ثابت أحاديث منكرةً.
وقال البخاري: لا يتابع في حديثه، يتكلمون فيه، ليس بالقوي عندهم. انظر «تهذيب الكمال في أسماء الرجال» للحافظ جمال الدين المزي المتوفى ٧٤٢ هـ (١٢/ ٢١٧ـ٢١٨) ط. مؤسسة الرسالة.

(٢) ومن أمثلة ذلك ما ورد عن بعض غلاة الشيعة كالملا محسن الكاشي في كتابه «الصافي في تفسير القرآن الكريم» عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿.. ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ ..﴾ الآية ـ التوبة ـ ٤٠ ـ نجده لا يعترف بهذه المنقبة لأبي بكر، ثم اتهم المفسر الصديق رضي الله عنه بعد ذكر قصة ساقها المفسر إلى أن قال: فأضمر تلك الساعة أنه ساحر ـ والعياذ بالله. ـ انظر «التفسير والمفسرون»: د. محمد حسين الذهبي: ٢/ ١٦٥، طبعة دار الكتب الحديثة، الطبعة الثانية القاهرة ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م. يقع في مجلدين.

صادف الحق والصواب في الواقع ونفس الأمر، فإنما هو اتفاقٌ من غير قصد، ورميةٌ من غير رامٍ.

ب ـ أن المراد بالحديثين من يفسر المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى مثل الحروف المقطعة.

ج ـ أن المراد بالحديثين من يفسر القرآن ولم يعرف من العلوم اللغوية والشرعية ما يؤهله لهذا، فمثل هذا وإن أصاب الصواب فقد أخطأ الطريق الصحيح في تفسيره.

٢ـ أما ما ذكر عن السلف الصالح من الصحابة والتابعين، فهو معارض بما يخالفه، فقد روي عن الصديق رضي الله عنه أنه سئل عن الكلالة فقال: (أقول فيها برأي فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه، الكلالة[١]: من لا ولد له ولا والد) فلما ولي الخلافة عمر رضي الله عنه قال: (إني لأستحي أن أخالف أبا بكر فيما رآه) رواه ابن جرير وغيره[٢].

وهذا يدل على أن قوله: (أي سماء تظلني...) إنما أراد به ما لم يقم عليه دليل، وما لا علم له به أو تخوفاً من ألا يصيب مراد الله.

قال الإمام الحافظ ابن كثير في تفسيره: (فهذه الآثار الصحيحة وما

---

(١) قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ...﴾ الآية. سورة النساء آية: ١٧٦.

(٢) انظر تفسير «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى ٣١٠هـ، ٦/ ٤٠، طبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثالثة، ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨.

شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم فيه، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلا حرج عليه، ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير، ولا منافاة، لأنهم تكلموا فيما علموه وسكتوا عما جهلوه....... ولما جاء في الحديث الذي جاء من عدة طرق: «من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار»(١) (٢).

وأيضاً، فقد روي عن كثير من الصحابة القول في تفسير القرآن، وذلك كالسادة الأخيار: علي، وابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب، وعبد الله بن عمر، وأنس، وأبي هريرة، وغيرهم. وكذلك ورد تفسير القرآن عن كثير من خيار التابعين كسعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والحسن البصري، ومسروق، والشعبي(٣)، وغيرهم، مما يدل على أن من امتنع منهم من تفسير القرآن إنما كان زيادة في الاحتياط ومبالغة في التورع والورع، ولعلهم رضي الله عنهم أرادوا بهذا أن يتريث من يريد تفسير كلام الله، ثم يتريث قبل أن يتكلم فيه. والله أعلم بالصواب.

---

(١) «مسند الامام أحمد» (٢/ ٢٦٣)، وأبو داود في «السنن» برقم (٣٦٥٨)، وابن ماجه في «السنن» برقم (٢٦١). (١/ ٩٦) بنحوه.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» للإمام الحافظ إسماعيل ابن كثير ٧٧٤هـ، ١/ ٥٠٨، طبعة دار القلم، بيروت ـ لبنان.

(٣) عامر بن شراحيل، علامة العصر، أبو عمرو الهمداني. ويقول رحمه الله: أدركت خمس مئة من أصحاب النبي ﷺ.

قال ابن عيينة: علماء الناس ثلاثة، ابن عباس في زمانه، والشعبي في زمانه، والثوري في زمانه. توفي سنة أربع ومئة وعمره ثنتين وثمانين سنة.

انظر «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٥/ ٢٩٤).

العلوم التي يجب على المفسر معرفتها والتي لا بد له منها:

اختلف الناس في تفسير القرآن، هل يجوز لكل أحد الخوض فيه؟

قال قوم: لا يجوز لأحد الخوض في تفسير شيء من القرآن، وإن كان عالماً أديباً متسعاً في معرفة الأدلة والنحو والفقه والأخبار والآثار، وليس له إلا أن ينتهي إلا إلى ما روي عن النبي ﷺ.

وقال قوم: يجوز للعالم أن يفسر القرآن لمن كان جامعاً للعلوم التي يحتاج إليها المفسر، وهي خمسة عشر علماً:

١ـ **علم اللغة**: لأن بها يعرف شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع، والمقصود بعلم اللغة، العلم باللغة الواسع المتعمق، ولا يكتفي باليسير منه.

٢ـ **علم النحو**: لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب، كأن يقرأ قوله تعالى:

﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾[1] بجر رسوله بدل الرفع.

٣ـ **علم التصريف**: لأن به تعرف أبنية الكلمات والصيغ، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾[2] حيث جهل أحدهم فقال إمامهم جمع أم وذلك بسبب جهله بالتصريف فإن (أماً) لا تجمع على إمام.

٤ـ **علم الاشتقاق**: لأن الاسم إذا كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين

(١) سورة التوبة: الآية ٣.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٧١.

اختلف المعنى باختلافهما، مثل كلمة مسيح، حيث ظن البعض أنها مشتقة من السياحة، أو من المسح على الشيء.

٥ـ **علم المعاني**: يعرف به خواص تركيب الكلام من جهة إفادتها المعاني.

٦ـ **علم البيان**: يعرف به تركيب الكلام من حيث اختلافه بحسب وضوح الدلالة وخفائها.

٧ـ **علم البديع**: يعرف به وجوه تحسين الكلام.

وهذه العلوم الثلاثة هي علوم البلاغة، وهي من أعظم أركان التفسير، لأنه لا بُدَّ له من أن يعلم ما يقتضيه الإعجاز، وإنما يدرك بهذه العلوم.

٨ـ **علم أصول الدين**: ليعرف المفسر ما يجب لله وما يستحيل عليه، وما يجوز له، وليعرف الفرق بين العقائد والشرائع، وما هو من أصول الدين وما هو من فروعه.

٩ـ **علم القراءات**: معرفة القراءات تساعد على ترجيح وجوه التفسير المحتملة للنص وكيفية النطق بألفاظ القرآن الكريم.

١٠ـ **علم أصول الفقه**: لأن به يعرف كيف تستنبط الأحكام من الآيات ووجه الاستدلال على الأحكام.

١١ـ **علم أسباب النزول**: لأنه بمعرفة سبب النزول يعرف المعنى المراد من الآية، كما أنه يزيل الإشكال عن بعضها، ويعرف وقت نزول الآية.

١٢ـ **علم الناسخ والمنسوخ**: وهو مهم للمفسر وإلا وقع في خطأ كبير، وليعرف المحكم من غيره، ويعرف ثبوت الحكم ونسخه.

١٣ـ علم الفقه: يعرف به مذاهب الفقهاء ومن احتج منهم بالآية ومن لم يحتج بها، وطريقة كل منهم في فهم الآية.

١٤ـ علم الأحاديث والسنن والآثار: المبينة لتفصيل المجمل وتوضيح المبهم وتخصيص العام وتقييد المطلق.

١٥ـ علم الموهبة: وهو علم يورثه الله تعالى من شاء بما علم وبما عمل، وإليه الإشارة بالأثر الذي أخرجه أبو نعيم: «من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم»[١].

جواز التفسير بالرأي والاجتهاد:

وإذا كانت الأدلة التي استند إليها المانعون من التفسير بالاجتهاد والرأي، لم تنهض أمام البحث والنظر، فقد تبين للباحث المنصف جواز التفسير بالرأي المُتَّئد البصير، والاجتهاد الذي توافرت لصاحبه أسبابه، وهي العلم بالعلوم التي ذكرناها آنفاً.

وأيضاً، لو لم يفسر القرآن بالاجتهاد لفات معنى التدبر والتأمل في القرآن الذي حثنا الله عليه في أكثر من آية، ولفات الكثير مما اشتمل عليه الكتاب الكريم من الأحكام والآداب وألوان المعارف والعلوم التي لا يزال يظهر منها في كتاب الله كل يوم جديد[٢].

---

(١) «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني المجلد الخامس ١٠/ ١٥ ط دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
(٢) للتوسع في هذا المبحث انظر في «مناهل العرفان في علوم القرآن»: ٢/ ٦١.

المنهج القويم في تفسير القرآن الكريم

١ـ أن يتحرى في التفسير مطابقة المفسّر للمفَسَّر، وأن يتحرز في ذلك عن نقص لما يحتاج إليه في إيضاح المعنى، أو زيادة لا تليق بالغرض، أي لا يوجز فيخل، ولا يطيل فيُمل، كل ذلك بقدر الطاقة البشرية.

٢ـ أن يعتني بأسباب النزول، لأنها كثيراً ما تعين على فهم المراد من الآية[١].

٣ـ أن يعتني بذكر المناسبات بين الآيات، لأن في ذلك إفصاحاً عن خصيصة من خصائص القرآن الكريم، وهي الإعجاز[٢].

٤ـ أن يجرد نفسه من الميل إلى مذهب بعينه، حتى لا يحمله ذلك على تفسير القرآن على حسب رأيه ومذهبه.

٥ـ مراعاة المعنى الحقيقي والمجازي، حتى لا يصرف الكلام عن حقيقته إلى مجازه إلا بصارف[٣].

---

(١) من الكتب المصنفة في هذا العلم كتاب:
«أسباب النزول» للإمام السيوطي.
و«أسباب النزول» للإمام الواحدي.
و«أسباب النزول» لابن حزم.
و«أسباب النزول» لأبي طالب القيسي. ويقع كل منها في مجلد واحد.

(٢) ومثاله كتاب «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» للإمام البقاعي، يقع في ٢٣ مجلداً.

(٣) من الكتب المصنفة في هذا العلم كتاب «مجاز القرآن» لأبي عبيدة معمر بن المثنى.

٦ـ مراعاة تأليف الكلام والغرض الذي سيق له، فإن ذلك يعينه على فهم المعنى وإصابة الصواب.

٧ـ يجب على المفسر البدء بما يتعلق بالمفردات، وتحقيق معانيها، ثم يتكلم عنها بحسب التركيب فيبدأ بالإعراب إن كان خفياً وإبراز أوجه القرآءات وتوجيهها إن كان في الآية أكثر من قراءة وإبراز أوجه ثم ما يتعلق، بالمعاني ثم البيان ثم البديع، ثم يبين المعنى المراد من الآية، ثم ما يستنبط من الآيات من الأحكام والآداب[١].

٨ـ التحاشي عن ذكر الروايات والآثار الضعيفة والموضوعة والروايات المدسوسة من الإسرائيليات ونحوها[٢].

* * *

(١) من كتب المفردات: «مفردات ألفاظ القرآن» للإمام الراغب الأصفهاني. والبلاغة بفروعها: «الإيضاح» للقزويني، و«التبيان» للطيبي، و«أساس البلاغة» للزمخشري ومنها المطول والمختصر.

(٢) للمزيد انظر كتاب «الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير»: د. رمزي نعناعة، وكتاب «الإسرائيليات» للدكتور محمد أبو شهبة رحمه الله. و«علوم القرآن الكريم» للدكتور نور الدين عتر (٧٢ ـ ٩٦).

مناهج المفسرين وأهم كتب التفسير

أولاً: كتب التفسير بالمأثور

(ومن أشهرها على سبيل المثال لا الحصر)

أ ـ جامع البيان في تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري[1]:

مؤلفه: الإمام الحافظ المفسر الفقيه المؤرخ أبو جعفر محمد بن جرير بن كثير بن غالب الطبري، ولد سنة (٢٢٤هـ) لقي الكثيرين من الشيوخ، وأخذ عنهم، وروى عنه الكثيرون، وكان من القناعة والزهد بمكان، وكان حافظاً لكتاب الله، عالماً بالقراءات، بصيراً بالمعاني، عالماً بالسنن وطرقها وصحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها، عالماً باللغة والأدب، عالماً بأحوال الصحابة والتابعين، وكان مثالاً مشرفاً للتفاني في العلم والبحث والتأليف، فما ظنك برجل مكث أربعين سنة يكتب كل يوم أربعين ورقة، توفي ببغداد ليومين بقيا من شوال سنة (٣١٠هـ).

ـ منهج ابن جرير في التفسير:

وتفسيره من أجلّ التفاسير بالمأثور وأعظمها قدراً، ذكر فيه ما روي في التفسير عن النبي ﷺ، وعن الصحابة والتابعين وأتباعهم.

وقد كانت التفاسير قبل ابن جرير لا يذكر فيها إلا الروايات الصرفة من

---

(١) يقع الكتاب في ٣٠ جزءاً، وفي ١٢ مجلداً، وله طبعات مختلفة.

غير أن يُذكر أصحابها، حتى جاء ابن جرير فزاد توجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض، وذكر الأعاريب والاستنباطات والاستشهاد بأشعار العرب على معاني الألفاظ.

ـ ثناء الأئمة عليه:

قال الإمام النووي في «تهذيبه»: (كتاب ابن جرير لم يصنف أحد مثله)، وقال ابن تيمية: (هو من أجلّ التفاسير وأعظمها قدراً)(١).

ما أخذ على تفسير ابن جرير:

أخذ على تفسير ابن جرير أنه يذكر الروايات من غير بيان وتمييز لصحيحها من ضعيفها، ولم يسلم تفسير ابن جرير على جلالة مؤلفه من الروايات الواهية والمنكرة والضعيفة والإسرائيليات، وبعض قصص القصاصين.

ب ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور(٢):

مؤلفه: الإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي، ولد سنة (٨٤٩هـ)، وتوفي والده وهو صغير، وقد لقي الكثيرين من الشيوخ وأخذ عنهم، حتى إنه وصل في كثير من العلوم إلى رتبة الاجتهاد، وترك من المؤلفات كثرة كاثرة، حتى قيل إنها تزيد عن الخمس مئة مؤلف، وكان من حفاظ الحديث وعلمائه المتبحرين فيه، العاملين به رواية ودراية متناً ورجالاً ومصطلحاً، توفي في القاهرة سنة (٩١١هـ).

---

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية»، كتاب مقدمة التفسير: ١٣/ ٣٨٥.
(٢) يقع الكتاب في ٦ مجلدات، وله طبعات مختلفة.

ـ منهجه في تفسيره:

وكتابه «الدر المنثور» جمع في الروايات عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين، وقد ذكر في مقدمته أنه لخصه من كتابه «ترجمان القرآن»[(١)] وهو التفسير المسند إلى رسول الله ﷺ وإلى الصحابة والتابعين.

ـ ما أخذ على تفسير الدر المنثور:

أخذ على التفسير أنه وإن عزى الروايات إلى مخرجيها، لكن لم يبيِّن لنا منزلتها من الصحة أو الحسن أو الضعف أو الوضع، وقلَّ ما بيّنه إلى ذلك، وفي كتابه إسرائيليات ولا سيما في قصص الأنبياء مثل ما ذكر في قصة هابيل وقابيل[(٢)] وهاروت وماروت[(٣)] وقصة الذبيح[(٤)]، وقصة يوسف[(٥)] وداود[(٦)] وسليمان[(٧)] وإلياس[(٨)] عليهم السلام.

وأسرف في ذكر المرويات في بلاء أيوب[(٩)] عليه السلام، ومعظمه لا يصح، وهو من إسرائيليات بني إسرائيل وأكاذيبهم على الأنبياء.[(١٠)]

---

(١) غير مطبوع.
(٢) في تفسير الآية (٣٠) من سورة المائدة انظر «الدر المنثور» (٢/ ٢٧٦ـ٢٧٧.
(٣) انظر «الدر المنثور» (١/ ٩٧).
(٤) المرجع السابق (٣/ ٣٣٩)، (٥/ ٢٨٢).
(٥) المرجع السابق (٤/ ٢).
(٦) المرجع السابق (٥/ ٣٠٠ـ٣٠٤).
(٧) المرجع السابق (٥/ ١٠٤ـ١١٢).
(٨) المرجع السابق (٥/ ٢٨٥).
(٩) المرجع السابق (٥/ ٣١٥).
(١٠) للتوسع في هذا البحث انظر «الاسرائليات وأثرها في كتب التفسير» د. رمزي نعناعة (٣٢٩ـ٣٣٦).

ثانياً: كتب جمعت بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي

(ومن أشهرها على سبيل المثال لا الحصر)

أ ـ معالم التنزيل[(١)]:

مؤلفه: العلامة الشيخ أبو محمد الحسين البغوي الفقيه الشافعي المحدث المفسر، ويلقب بمحيي السنة، وكان تقياً ورعاً، وزاهداً متقشفاً قانعاً، لا يلقي الدرس إلا على طهارة، وإذا أكل لا يأكل إلا الخبز، ثم صار يأتدم بالزيت، وله مؤلفات مفيدة منها: «شرح السنة»، وكتاب «المصابيح»، توفي سنة (٥١٠هـ).

ـ منهجه في التفسير:

قال صاحب «كشف الظنون»: «معالم التنزيل» في التفسير، هو كتاب متوسط، نقل فيه عن مفسري الصحابة والتابعين ومن بعدهم[(٢)]. وليس خالصاً للتفسير بالمأثور، بل جمع فيه بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي والاجتهاد المقبول، كما لم يذكر فيه الأسانيد اكتفاء بذكرها في أول كتابه كما صنع الثعلبي[(٣)] في تفسيره الذي هو أصل تفسير البغوي ومرجعه.

---

(١) له طبعة في٤ مجلدات، وطبعة في ٨ مجلدات عليها بعض الشروح للكتاب.

(٢) «كشف الظنون» لمصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة ٢/ ١٧٢٦.

(٣) الإمام الحافظ العلامة، شيخ التفسير، أبو إسحاق، أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري، كان أحد أوعية العلم، بصيراً بالعربية، طويل الباع في الوعظ، ومن أشهر مؤلفاته: كتاب التفسير الكبير« الكشف والبيان في تفسير القرآن» لم يطبع بعد. وقال ابن الجوزي: (ليس فيه ما يعاب إلا ما ضمه من الأحاديث الواهية التي هي في الضعف متناهية خصوصاً في أوائل السور).

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية، في مقدمته في أصول التفسير ما يلي: =

ـ قيمة تفسيره العلمية :

وهذا التفسير من خيرة التفاسير وأسهلها وأبعدها عن التعقيد وعدم الاستطراد وعدم الإكثار في المباحث اللغوية والنحوية والفقهية .

وقد جمع فيه بين الصحيح والضعيف وذكر فيه الكثير من الإسرائيليات، قال ابن تيمية : (و البغوي تفسيره مختصر من الثعلبي لكن صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعة، والآراء المبتدعة)(١) والصواب أن كتابه لم يسلم من بعض الأحاديث الموضوعة والإسرائيليات .

ب ـ تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير(٢) .

مؤلفه : الإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر ابن كثير القرشي الدمشقي الفقيه الشافعي، ولد سنة (٧٠٠هـ) تقريباً، لازم الحافظ المزي، وقرأ عليه تهذيب الكمال، وصاهره على ابنته، وأخذ عن

= (والثعلبي هو في نفسه كان فيه خير ودين، ولكنه كان حاطب ليل ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع) .

وقال العلامة السيد محمد بن جعفر الكتاني في «الرسالة المستطرفة» عند كلامه عن الواحدي المفسِّر : (ولم يكن له ـ أي الامام الواحدي ـ ولا لشيخة الثعلبي كبير بضاعة في الحديث بل في تفسيرهما ـ وخصوصاً الثعلبي ـ أحاديث موضوعة وقصص باطلة) توفي رحمه الله في المحرم سنة سبع وعشرين وأربع مائة .

انظر «سير أعلام النبلاء» للإمام شمس الدين بن محمد بن أحمد الذهبي (١٧/ ٤٣٥ ـ ٤٣٦)

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية»، كتاب مقدمة التفسير : ١٣/ ٣٨٦ .

(٢) للكتاب عدة طبعات مختلفة في ٨ مجلدات وفي ٤ مجلدات وغيرها .

ابن تيمية، وفتن بحبه وامتحن بسببه، وهو من أخلص تلاميذ ابن تيمية وأشدّهم اتباعاً له في آرائه الفقهية والتفسيرية، حتى كان يفتي برأيه في مسألة الطلاق بالثلاث بلفظ الواحد، توفي سنة (٧٧٤هـ).

ـ منهجه في التفسير:

وتفسيره من أجل التفاسير إن لم يكن أجلها وأعظمها، جمع بين التفسير والتأويل والرواية، مع العناية التامة بذكر الأسانيد وبيان صحيحها من ضعيفها من موضوعها، ونقد الرجال والجرح والتعديل.

ومن **خصائص هذا التفسير العظيم**: أنه يُفسر القرآن بالقرآن، ثم يُعرِّج على ما ورد في السنة وأقوال الصحابة والتابعين مع حسن البيان، وعدم التعقيد، وعدم التشعيب في المسائل، والاستطراد الكثير، ومن خصائصه أيضاً: أنه يعتبر نسيج وحده في التنبيه على الإسرائيليات والموضوعات في التفسير، تارة يذكرها ويُعقب عليها بأنها دخيلة على الرواية الإسلامية، ويبين أنها من الإسرائيليات الباطلة المكذوبة، وتارة لا يذكرها بل يشير إليها ويبين رأيه فيها، وكل من جاء بعد ابن كثير هم عالة عليه في هذا، ومدينون له فيها بهذا الفضل كالإمام الألوسي، والأستاذ محمد عبده، والسيد محمد رشيد رضا رحمهم الله.

ج ـ تفسير مفاتيح الغيب:[1]

مؤلفه: فخر الدين محمد بن العلامة ضياء الدين عمر الرازي المشتهر بخطيب الريّ الرازي، وهو عربي قرشي من سلالة أبي بكر الصديق، ولد

(١) يقع في ١٦ مجلدا، وله طبعات مختلفة.

سنة (٥٤٣هـ) في مدينة الري. وكانت حينئذ العاصمة الكبرى لبلاد العراق، وقد كان الإمام من كبار أهل العلم بالأصلين (أصول الدين وأصول الفقه) ومن كبار علماء الكلام على مذهب أهل السنة. ومن ثَمَّ ناقش أهل الاعتزال وغيرهم، وكذلك كان عالماً بالفلسفة ومذاهب الفلاسفة، فمن ثَمَّ تعرض لآراء الفلاسفة في قدم العالم فناقشهم ورد شبههم وفنّدها ونقضها في مواضع كثيرة من كتبه.

ـ قيمة تفسيره العلمية:

إن تفسير مفاتيح الغيب من أجلِّ التفاسير وإن أطال في الاستدلال وردِّ الشبه، ومن مميزات هذا التفسير الجليل أنه يكاد يخلو من الإسرائيليات، وإذا ذكر شيئاً فذلك لأجل أن يبطله، وذلك كما صنع في قصّة هاروت وماروت، وقصص داوود وسليمان كما تعرض بالتزييف لبعض المرويات التي تخل بعصمة النبي ﷺ، وأبطلها كما صنع في قصة الغرانيق[1].

---

(١) وخلاصة قصة الغرانيق، ما ذكره بعض المفسرين في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ الحج الآية ٥٢.

فقد ذكر بعض المفسرين في سبب ذلك: ما قاله السيوطي: أخرج ابن ابي حاتم، وابن جرير، وابن المنذر، من طريق بسند صحيح من سعيد بن جبير قال: قرأ النبي ﷺ بمكة: (والنجم) فلما بلغ: ﴿ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ﴾ ألقى الشيطان على لسانه: [تلك الغرانيق العُلى. وإن شفاعتهن لترتجى] فقال المشركون: ما ذكر آلهتنا بخير قبل، فسجدوا وسجد. فنزلت. وأخرجه البزار، وابن مردويه، بوجه آخر عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس. وقد عقب السيوطي في نهاية ذكر الطرق التي رُويت لها القصة قال: وكلها إما ضعيفة، وإما منقطعة سوى طريق سعيد بن جبير. ا. هـ.

قلت: وهذه القصة غير ثابتة لا من جهة النقل ولا من جهة العقل والنظر: =

. . . .

= أما من جهة النقل: فقد طعن فيها كثير من المحققين والمحدثين، قال البيهقي: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل.

وقال القاضي عياض في« الشفاء» (٢/ ١١٦): (إن هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون والمولعون بكل غريب.. الخ. ومما يقلل الثقة بالحديث، إضطراب الروايات إضطراباً فاحشاً، فراوٍ يقول: إنه كان في الصلاة، وقائل يقول: قالها في نادي قومه، وثالث يقول: قالها وقد أصابته سِنةٌ.. الخ، وكل هذا الاضطراب مما يوهن الرواية.

أما بطلان القصة من جهة العقل والنظر: فقد قام الدليل وأجمعت الأمة على عصمته عليه الصلاة والسلام من مثل ما روي، إما من تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح آلهة العرب وهو كفر، أو أن يتسور عليه الشيطان، ويشبِّه عليه القرآن، حتى يجعل فيه ما ليس منه، ويعتقد النبي ذلك، حتى ينبهه جبريل، وذلك ممتنع في حقه أن يقوله من قِبل نفسه عمداً، وهو كفر، أو سهواً وهو معصوم، وقد ثبت بالبراهين والإجماع عصمته من جريان ذلك على لسانه، أو قلبه لا عمداً ولا سهواً. انظر «الشفاء» للقاضي عياض (٢/ ١١٩).

ومما يدل على بطلان القصة ما ذكره الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في رده هذه الفرية، وهو أن وصف العرب لآلهتهم بالغرانيق لم يرد لا في نظمهم ولا في خطبهم، ولم ينقل عن أحد أن ذلك الوصف كان جارياً على ألسنتهم، والذي تعرفه اللغة: أن الغِرنوق والغرانيق: اسم لطائر مائي أسود أو أبيض، ومن معانيه الشاب الأبيض الجميل، ويطلق على غير ذلك، انظر «القاموس» ولا شيء من معانيه اللغوية يلائم معنى الإلهية والأصنام، حتى يطلق عليها في فصيح الكلام، الذي يعرض على أمراء الفصاحة والبيان، ولا يجوز أن يكون هذا من قبيل المجاز بتشبيه الأصنام والآلهة بالغرانيق، لأن الذوق الأدبي العربي يأبى ذلك، ولا يفوتنا التنبيه على أن القصة يفهم منها تسلط الشيطان على النبي ﷺ بالزيادة في القرآن ما ليس منه، وهو مخالف لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾، وأي شخص أحق بهذه العبودية من الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ=

. . . .

= ﴿رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، وأي بشر أصدق إيماناً وأقوى توكلاً من رسول الله؟.

وإذا كانت القصة غير ثابتة من جهة النقل والعقل، بل هي مخالفة لنصوص القرآن المتواتر، فبهذا يتبين لنا أن حديث الغرانيق مكذوب مختلق وضعه الزنادقة، الذين يحاولون الطعن في خاتم الأنبياء، وفي رسالته عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وبعد، لا بد من بيان المعنى الصحيح في تفسير الآية الكريمة: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ الحج الآية (٥٢ ـ٥٣ ـ٥٤) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ والخطاب للمصطفى ﷺ: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ قال البغوي[أ]: وأكثر المفسرين قالوا معنى قوله تعالى: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ أي تلا وقرأ كتاب الله.

﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ أي: في تلاوته[ب].

وقوله: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾.

قال ابن جرير الطبري: الآيات التي أخبر الله جلَّ ثناؤه أنه يُحكمها، لا شكَّ أنها آيات تنزيله، فمعلوم أن الذي ألقى فيه الشيطان، هو ما أخبر الله تعالى ذكره أنه نسخ ذلك منه وأبطله، ثم أحكمه بنسخه ذلك منه.

فتأويل الكلام إذن: وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تلا كتاب الله، وقرأ، أو حدث وتكلم، ألقى الشيطان في كتاب الله الذي تلاه وقرأه، أو في حديثه الذي حدث وتكلم ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ فيقول تعالى: فيذهب الله ما يُلقي الشيطان من ذلك على لسان نبيه ويبطله. ـ أ. هـ[جـ].

(أ) تفسير البغوي (٥/ ٢٣)..

(ب) تفسير ابن كثير (٥/ ٤٤٥) طبعة دار طيبة.

(جـ) انظر تفسير الطبري (١٧/ ١٩٠).

د ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل[١].

مؤلفه: الشيخ الإمام قاضي القضاة ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر البيضاوي الشافعي، أصله من شيراز في جنوب إيران، وبها كانت نشأته العلمية الأولى، وبها تخرج في الفقه والأصول والمنطق والحكمة والأدب، وضم علوم العربية والأدب إلى علوم الشريعة والحكمة، ولّي قضاء شيراز مدة، وكانت وفاته بتبريز سنة (٦٨٥هـ)، ومن مؤلفاته القيمة كتاب «المنهاج وشرحه»[٢] في أصول الفقه، وكتاب «الطوالع»[٣] في أصول الدين.

ـ قيمة تفسيره العلمية:

وتفسيره جامع بين التفسير والتأويل على مقتضى القواعد اللغوية والشرعية، وهو متأثر في طريقته بتفسير «الكشاف» للزمخشري، ولكنه قرر فيه الأدلة على أصول أهل السنة والجماعة، وهو في هذا متأثر بالإمام فخر الدين الرازي، وقد صاغ الإمام البيضاوي تفسيره صياغة محكمة دقيقة، فهو لا يضع الكلمة إلا بميزان، ونحا فيه منحى الإيجاز والتركيز،

= **ملاحظة هامة**: من أراد التوسع في هذا البحث فعليه مطالعة كتاب «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير» ص٤٤٠ـ٤٤٩، للدكتور محمد أبو شهبة رحمه الله، وكتاب «محمد رسول الله ﷺ» للدكتور محمد الصادق إبراهيم عرجون (٣٠ـ١٥٥) دار القلم، الطبعة الاولى ١٤٠٥ هـ.

(١) يقع الكتاب في مجلد، وفي بعض الطبعات في مجلدين.

(٢) مطبوع، في مجلد واحد.

(٣) طوالع الأنوار، مطبوع في مجلد واحد.

فمن ثَمَّ وضعت عليه التعاليق والحواشي لشرح دقائقه وحلِّ رموزه، وأجلُّ حواشيه حاشية الشهاب الخفاجي، وهي ديوان علم وأدب، وفيها غاية التحقيقات والتدقيقات فيما عرضت له من مسائل وقضاياً علمية، والإسرائيليات في هذا التفسير قليلة جداً.

ولكن مما أخذ عليه: اشتماله على بعض الروايات الموضوعة التي لا تدرك بالعقل والنظر، وإنما يعرف حقيقتها حفاظ الحديث. وقد ألف الشيخ عبد الرؤوف المناوي كتاباً سماه «الفتح السماوي في تخريج أحاديث البيضاوي»[1] وكذلك قام الإمام الشهاب الخفاجي ببيان بعض هذه المرويات الموضوعة والضعيفة.

هـ ـ الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي القرآن[2]

مؤلفه: الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي المفسر، كان من عباد الله الصالحين والعلماء الورعين الزاهدين في الدنيا، كانت أوقاته كلها معمورة مشغولة ما بين عبادة وتأليف، وكانت وفاته سنة (٦٧١هـ)، ومن مؤلفاته كتاب «الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»[3] و «التذكار في أفضل الأذكار»[4].

ـ قيمة تفسيره العلمية:

تفسير القرطبي من أجلِّ التفاسير وأعظمها نفعاً، أسقط منها المؤلف

---

(١) مطبوع، في ثلاث مجلدات.
(٢) يقع الكتاب في ٢٠ مجلدا، وله طبعات أخرى.
(٣) مطبوع، في مجلد واحد.
(٤) مطبوع، في مجلد واحد.

القصص والتواريخ، وذكر عوضاً عنها أحكام القرآن بتوسع، فاستنبط الأدلة وذكر القراءات والإعراب، والناسخ والمنسوخ، ومن محاسن هذا التفسير: أنه يُخرّج الأحاديث ويعزوها إلى من رواها من الأئمة غالباً، وصان كتابه من الإكثار من ذكر الإسرائيليات والأحاديث الموضوعة، كما أنه إذا ذكر بعض الإسرائيليات والموضوعات فإنه يكر عليها بالإبطال أو يُبين أنها ضعيفة، وربما أيضاً على بعض المرويات في أسباب النزول(١).

و ـ مدارك التنزيل وحقائق التأويل(٢):

مؤلفه: الإمام أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي الحنفي المتوفى سنة (٧٠١هـ)، كان إماماً بارعاً في الفقه والأصول، عالماً بالتفسير والحديث، وإن لم يكن من حُفّاظه وأئمته، وله من المؤلفات «كنز الرقائق»(٣). في الفقه، و«المنار»(٤) في أصول الفقه، و«العمدة»(٥) في أصول الدين.

ـ قيمة تفسيره العلمية:

مدارك التنزيل وحقائق التأويل من التفاسير الوسطية، ليس بالطويل المُمِلّ ولا بالمختصر المُخِلّ، وهو يعتبر بحقٍّ مختصراً لتفسير الكشاف، غير أنه صانه من الآراء الاعتزالية التي بثها الزمخشري في تفسيره، وحذف

---

(١) للاطلاع انظر «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية»: ١٣/ ٣٨٧.
(٢) يقع الكتاب في ٤ مجلدات، وله طبعات أخرى.
(٣) مطبوع في مجلد واحد.
(٤) مطبوع في مجلد واحد.
(٥) غير مطبوع.

منه طريقة السؤال والجواب في الإفصاح عن وجوه البلاغة وأسرار الإعجاز، وهو من التفاسير التي تعنى بالتنبيه إلى القراءات السبع المتواترة، ونسبة كل قراءة إلى قارئها، وقد جاء الكتاب كأصله مُقلاً من ذكر الإسرائيليات، وقد يذكر بعضها وينبه إلى عدم صحته.

❊ ❊ ❊

ثالثاً: نظرة مجملة في أشهر كتب التفسير بالرأي والإجتهاد

(ومن أشهرها على سبيل المثال لا الحصر)

أ ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل(١):

مؤلفه: الإمام محمود بن عمر الزمخشري الملقب بـ(جار الله)، لأنه ارتحل إلى مكة وأقام بها مجاوراً البيت، وفيها ألف كتابه هذا، ولد سنة ٤٦٧هـ، وقد برع في اللغة والأدب والنحو ومعرفة أنساب العرب، وكان عالماً بكثير من العلوم الإسلامية كالفقه، لا سيما الفقه الحنفي والأصول والتفسير، ثم اعتنق مذهب الاعتزال ودعا إليه، وصار من أئمة المعتزلة، وله مؤلفات كثيرة منها «ربيع الأبرار»(٢)، و «الأساس»(٣)، و«الفائق»(٤)، توفي سنة ٥٣٨هـ.

ـ قيمة تفسير الزمخشري العلمية:

إن تفسير الكشاف من خير كتب التفسير وأجلّها، ولولا نزعته الاعتزالية في بعض الآيات القرآنية لما تناوله المعترضون بالنقد، وبحسب هذا الكتاب فضلاً ومنزلة أن كل من جاء بعد الزمخشري عالةً عليه فيما يذكره فيه من أسرار الإعجاز والغوص في المعاني البلاغية الدقيقة، ولبراعته في الكلام، وبُعد غوره يدس آراءه في أثناء تفسيره، لذا قال البلقيني: (استخرجت من الكشاف اعتزالاً بالمناقيش) قال ابن تيمية في

---

(١) يقع الكتاب في ٤ مجلدات.
(٢) مطبوع في٤ مجلدات.
(٣) أساس البلاغة، مطبوع في مجلد واحد.
(٤) الفائق في غريب الحديث، مطبوع في ٤ مجلدات.

أثناء الكلام عن تفاسير المعتزلة: (ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة، يدسُّ البدع في كلامه، وأكثر الناس لا يعلمون كصاحب الكشاف ونحوه)[١].

- مميزات تفسير الزمخشري:

١ـ خلوه من الحشو والتطويل.

٢ـ سلامته من القصص الإسرائيلي غالباً.

٣ـ اعتماده في بيان المعاني على لغة العرب وأساليبهم في الخطاب.

٤ـ عنايته الفائقة بالإبانة عن أسرار الإعجاز القرآني بطريقة فنية قائمة على الذوق الأدبي.

٥ـ إتباعه طريقة السؤال (إن قلت كذا وكذا؟ قلت كذا وكذا) وهي طريقة التشويق في التعليم وترسيخ المعاني في النفس.

ب ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم[٢]:

ومؤلفه: الإمام القاضي المفتي أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى الحنفي، ولد سنة ٨٩٣ هـ، ونشأ في بيت عُرِفَ بالعلم والفضل والدين، تتلمذ على والده وغيره من العلماء، حتى صار عالماً من أعلام العلم، تولى التدريس مدة، ولّي القضاء حتى انتهى به الأمر إلى الإفتاء، وكان أبو السعود عالماً أديباً متمكناً من اللغات الثلاث، العربية، الفارسية، والتركية.

---

(١) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، مقدمة كتاب التفسير: ١٣/ ٣٨٦.

(٢) يقع الكتاب في ٧ أجزاء، وفي ٤ مجلدات.

وقد مكنت له معرفته بهذه اللغات الاطلاع على الكثير من الكتب التي ألفت بها، فاكتسب علماً غزيراً، توفي بالقسطنطينية في سنة ٩٨٢هـ، ودفن بجوار الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه.

ـ منهجه في تفسيره وقيمته العلمية:

كان أبو السعود يشتغل بالتدريس لطلبته الذين كانوا لا يفارقونه، وقد كانت نفسه تتشوف إلى تفسير جامع بين الكشاف وتفسير البيضاوي وما يفتح الله عليه من الفهوم.

وقد حقق الله له هذه الأمنية فكان ثمرة ذلك هذا التفسير العظيم.

ومن أهم مميزات هذا التفسير: أنه خال من الاستطرادات والتوسع في ذكر الأحكام الفقهية والنحوية.

وقد عني فيه عناية بالغة بإبراز وجوه البلاغة وأسرار الإعجاز في القرآن الكريم، وفي عباراته شيء كثير من العمق والدقة، ومن مميزاته خلوه غالباً من القصص الإسرائيلي، وإذا ذكره فإنه يذكره مضعفاً له أو منكراً أو مبطلاً.

ج ـ (روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني)[1].

مؤلفه: هو الإمام شهاب الدين محمود بن عبد الله الألوسي البغدادي الحنفي، مفتي بغداد، خاتمة المحققين، وعمدة المدققين، وإمام المفسرين، ولد عام ١٢١٧هـ، نبغ في العلوم من صغره، وأخذ عن كثير

---

(١) يقع الكتاب في ٣٠ جزأ بـ ١٥ مجلدا.

من فحول علماء عصره، منهم والده، واشتغل بالتدريس والتأليف وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وقد تتلمذ عليه كثيرون، وتخرج على يده بعض العلماء الفضلاء من بلاد مختلفة، وكانت وفاته عام ١٢٧٠ هـ.

- منهجه في تفسيره وقيمته العلمية:

تفسير «روح المعاني» خير تفسير وأجمعه وأوفاه، وقد جمع فيه خلاصة كل كتب التفسير قبله، وكثيراً ما يدلي برأيه بين الآراء، فهو ليس مجرد ناقل، بل له شخصيته العلمية البارزة وأفكاره النيرة، وليس في تفسيره ما يؤاخذ عليه إلا كثرة الاستطرادات والتوسع فيها.

وقد خلا تفسيره من ذكر الأحاديث الموضوعة والروايات الإسرائيلية، وإن ذكر منها شيئاً، فإنه ينبه على بطلانها، وقد مكث في تأليف تفسيره (١٥ سنة)، وكان كثيراً ما ينشد وحق له ذلك:

سهـري لتنقيـح العلـوم ألـذُّ لـي ... مـن وصـل غـانيـةٍ وطيـبِ عنـاقِ
وتمـايلـي طـربـاً لحـلِّ عـويصـةٍ ... أشهى وأحسنُ من مُدام الساقي
وألـذُّ مـن نقـر الفتـاة لـدفِّهـا ... نقري لدفع الرَّمل عن أوراقي

* * *

وبعد أن انتهينا - بحمد الله - من عرض مقدمة موجزة عن التفسير وأقسامه ومناهجه وأشهر كتبه، فإننا نشرع - بعون الله وقوته وتوفيقه - بتفسير سورة الحجرات كما وعدنا، والله المستعان، وعليه التكلان.

* * *

تفسير
سورة الحجرات

أهداف البحث

١ ـ إن الاشتغال بخدمة كتاب الله من أعظم ما يتشرف به الإنسان، فقد أوجب الله على الأمة حفظ القرآن الكريم، وأوجب عليهم أيضاً فهمه وتدبر معانيه قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[1].

وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[2] فعموم الآيات السابقة تحث على تدبر القرآن، وتدبر القرآن بدون فهم معانيه غير ممكن، لأن فهم معانيه إنما يكون بمعرفة تفسيره، لذلك ذكر أهل العلم أن تفسير القرآن فرض على الأمة، ولكنه فرض كفاية، فإذا قام به أهل العلم المتأهلون له من الأمة الإسلامية سقط عن الباقين.

٢ـ إن هذه السورة ضمن المقرر على طلاب التخصص في قسم الدراسات الإسلامية المستوى الأول، وكُتُب التفسير القديمة لا تخلو من الإسرائيليات والروايات الضعيفة فضلاً عن التطويل الذي يؤدي إلى صعوبة تركيز الطلاب في فهم السورة، ولا يعني كلامي هذا الطعن أو

(١) سورة النساء: الآية (٨٢).

(٢) سورة ص: الآية (٢٩).

التنقيص من قدر تلك الكتب، بل إنني أؤكد أن كل من جاء بعد أصحاب تلك المؤلفات العظيمة في التفسير هم عالة عليهم.

٣ـ في هذه السورة الكريمة الكثير من الآداب الاجتماعية التي نفتقد إليها وفي أمسِّ الحاجة أن نُعلِّمَها لأبنائنا وبناتنا، بل جميع أفراد المجتمع.

٤ـ هذه السورة زخرت ـ كغيرها من سور القرآن الكريم ـ بأسرار الإعجاز التي خص بها القرآن الكريم، والقرآن بحر لا ساحل له ولا تنقضي عجائبه، وفيه من كنوز البلاغة ما يقف المفسر أمامه مطأطىء الرأس إجلالاً لكلام الله.

فأسأل الله جلَّ وعلا أن يُذيقنا من أسرار القرآن، وأن يرزقنا فهماً يرضاه، إنه سميع مجيب.

٥ـ وإنه لشرف عظيم، وأي شرف أن يقوم الإنسان بخدمة كتاب الله، فَعِلم التفسير من أشرف العلوم على الإطلاق، وقد شرفني الله بتدريس هذه المادة، وقد كتبت في العام الماضي كتاباً في تفسير سورة الواقعة وهو مطبوع، وآمل أن يكون تفسير هذه السورة (سورة الحجرات) امتداداً لما مَنَّ الله به عَلَيَّ من تفسير سورة الواقعة.

د. عادل محمد صالح أبو العلا

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الحجرات

بين يدي السورة:

سورة الحجرات من السور المدنية، وهي على وجازتها تتضمن حقائق التربية الفاضلة، فتعتني أعظم عناية بتكوين المجتمع الإيماني كما يحبه الله تعالى ورسوله المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، والمتمعن في هذه السورة الكريمة يجد أنها اشتملت على عدة آداب ومعانٍ كثيرة مرتبة كالآتي:

أولاً: أنها ابتدأت بوجوب الأدب مع الخالق جلَّ وعلا، وذلك بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

ثانياً: ثم انتقلت بعد ذلك إلى وجوب الأدب مع رسول الله ﷺ، فلا يليق أن نرفع أصواتنا فوق صوته، ولا أن نناديه بما لا يليق بمقام النبوة.

ثالثاً: هذا... ثم ينتقل الحديث إلى الأدب الاجتماعي العام الذي يصقل المجتمع ليجعله مجتمعاً إيمانياً فاضلاً، فنلمس من خلال تأملنا لتلك الآيات الحث على عدم السماع للإشاعات، والأمر بالتثبت من

الأنباء والأخبار، وكذلك دعت إلى الإصلاح بين المتخاصمين ودفع عدوان الباغين.

رابعاً: وفي الحقيقة نجد أن هذه السورة تعدُّ مجمعاً للأخلاق والمُثُل العليا الإسلامية التي تجعل المجتمع بِحقٍّ مجتمعاً فاضلاً، تتوافر فيه أسس المكارم الأخلاقية الفاضلة، حتى إن بعض المفسرين سماها (سورة الأخلاق)، فقد حذرت السورة الكريمة من السخرية والهمز واللمز، ونفرت عن الغيبة والتجسس وسوء الظن بالمؤمنين، ودعت إلى نبذ العصبية الجاهلية المنتنة، وأنه لا فضل لبعضهم على بعض إلا بالتقوى والعمل الصالح.

خامساً: وكما اهتمت هذه السورة بمكارم الأخلاق، فقد اهتمت أيضاً ببيان حقيقة الإيمان، وذلك بذكر الأعراب الذين ظنوا أن الإيمان كلمة تقال باللسان، و جاؤوا يمنون على رسول الله ﷺ إيمانهم، فنبهت إلى حقيقة الإيمان الذي يواطىء القلب ويصدقه اللسان وعمل الجوارح، فذكرت شروط المؤمن الكامل، وهو الذي جمع الإيمان والإخلاص والجهاد والعمل الصالح، ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾[1].

سادساً: ثم ختمت السورة بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد، فمن التزم بهذه الآداب والتعاليم فاز ونجا، ومن خالفها خاب وخسر، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[2] فهذه الآية الخاتمة لهذه السورة الكريمة ردٌّ على ما جاء في أولها من عدم تقديم أي أمر أو أي رأي

---

(١) الحجرات: الآية ١٥.

(٢) الحجرات: الآية ١٨.

على أمر الله ورسوله ﷺ، وهو ما يسمى عند البلاغيين (رد العجز على الصدر، أو اتفاق الخاتمة مع الفاتحة)، فكأنه جلَّ وعلا يقول خافوني وخافوا عقابي، وذلك بالمداومة على تقواي واتباع أوامري، واجتناب ما نهيتكم عنه، فإنني عليم بكلّ ما يصدر منكم في السرِّ والعلن والظاهر والباطن.

والله أعلم،،،

* * *

فائدة

تكرر النداء بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ في القرآن الكريم تسعاً وثمانين مرة، وذكر في هذه السورة التي نحن بصدد دراستها خمس مرات، وفي كل مرة إشارة إلى مكرمة من المكارم الأخلاقية وأدب من الآداب الاجتماعية، ويمكننا أن نستعرض تلك المكارم والآداب في فقرات:

أولاً: وجوب الطاعة والانقياد لأوامر الله ورسوله ﷺ، وعدم التقدم عليه بقول أو رأي، قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(١).

ثانياً: احترام الرسول ﷺ وتعظيم شأنه، قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾(٢).

ثالثاً: وجوب التثبت من الأخبار قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾(٣).

رابعاً: النهي عن السخرية بالناس، قال الله تعالى:

---

(١) الحجرات: الآية ١.
(٢) الحجرات: الآية ٢.
(٣) الحجرات: الآية ٦.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ﴾[1] الآية .

خامساً: النهي عن التجسس والغيبة وسوء الظن، قال الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴾[2] الآية .

* * *

---

(١) الحجرات : الآية ١١ .

(٢) الحجرات : الآية ١٢ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[(١)].

اعلم رحمك الله أن (يا) في اللغة هي موضوعة للبعيد مكاناً أو رتبة وقد جرت عادة الحق سبحانه وتعالى في ندائه عباده أن يناديهم بقوله: (يا عبادِي) لا للبعد المكاني وإنما هو من باب تعالي مقام الربِّ جلَّ وعلا، وعزة ألوهيته سبحانه، وعظمة سلطان ربوبيته، وعلو شأنه، فينادي عباده الذين هم عبيده بقوله: (يا) وأين رتبة العبودية بالنسبة لعلو مقام الربوبية.

على أن في قوله تعالى: (يا) تنبيهاً للعباد كي يُقبلوا بكليتهم إلى ما سيلقى عليهم من الخطاب المشتمل على الأوامر والنواهي والإرشادات والتوجيهات، وإلى ما فيه صلاحهم وسعادتهم.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا﴾ هذا نداء بـ (يا أيها) وهو أقوى في التنبيه إلى ما سيلقى عليهم بعد النداء، وليعلموا أنه أمر عظيم يجب الانتباه إليه والتحقق فيما يتطلبه، فقولك: يا أيها الرجل، أقوى في التنبيه من قولك: يا رجل.

---

(١) الحجرات: الآية ١.

وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ إنَّ كل من تدبر في آيات القرآن الكريم يعلم أن الخطابات الإلهية، والتي فيها إرشادات الله تعالى لعباده، والتي فيها الأوامر والنواهي، جاء ذلك على أنواع من الصفات والنعوت، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾، ويقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، و﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

فما جاء في خطابه سبحانه وتعالى لعباده بوصف ﴿بَنِي آدَمَ﴾ يدل على أن ما وراء ذلك هو أمرٌ عام، وحُكمٌ شامل لجميع بني آدم، من أولهم إلى آخرهم، وفيه رشادهم، وصلاح أمورهم، وسعادتهم، على اختلاف أزمنتهم وأمكنتهم.

فمن ذلك ما جاء في سورة الأعراف من قوله تعالى:

﴿يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[1].

وأما الخطاب بوصف ﴿النَّاسُ﴾ فقد يراد به جميع الناس من المؤمنين وغيرهم، كقوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[2].

وقد يراد به المشركون، قال الله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ

---

(١) الأعراف: الآية ٢٦.
(٢) النساء: الآية ١.

لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾[١].

وأما الخطابات الإلهية (بصفة الإيمان) فهي موجهة للمؤمنين، من ذلك قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٢].

وفي الخطاب بهذه الصيغة وجوه من الحكمة:

أولاً: تشريفه وتكريمه سبحانه لعباده المؤمنين، فإن الوصف بالإيمان فيه شرف كبير وفضل جليل، فإن نعمة الإيمان على العبد لا تعادلها أي نعمة.

ثانياً: في هذا النوع من الخطاب تحريض للمؤمنين وحثهم بما يملْيه عليهم من الأوامر والنواهي، لأن لها ارتباطاً وثيقاً بإيمانهم، فيسارعون إلى تحقيق ذلك ليكتمل لهم إيمانهم.

ثالثاً: فيه بيان أن ما سيلقيه عليهم بعد هذا النداء يجب عليهم أن يسارعوا إلى تطبيقه والتحقق به ائتماراً بالأمر وانتهاءً في النهي، وبذلك يتبين الصادق في الإيمان من المنافق الكاذب، ويكون هذا من باب البينة على دعواهم الإيمان الصادق.

روى البيهقي بإسناده أن رجلاً قال لابن مسعود رضي الله عنه: أوصني، فقال له: إذا سمعت الله عز وجل يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾

---

(١) الحج: الآية ٧٣.

(٢) الحجرات: الآية ١.

فأصغ إليها سمعك، فإنّه خيرٌ توصى به، أو شرٌّ تُصرفُ عنه[١]، وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: يا أيها المؤمنون، يا من اتصفتم بالإيمان، وصدقتم بكتاب الله، وآمنتم برسوله ﷺ، لا تُقدِّموا أمراً أو فعلاً أو رأياً بين يدي الله ورسوله ﷺ، وحذف المفعول في قوله: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟﴾ (للتعميم) ليذهب ذهن السامع إلى كل ما يمكن تقديمه من قول أو فعل أو رأي، كما إذا عرضت مسألة في مجلسه ﷺ لا يسبقونه بالجواب، وإذا حضر الطعام لا يبدؤون بالأكل، وإذا ذهبوا معه إلى مكان لا يمشون أمامه، ونحو ذلك، أو أنه قصد إلى الفعل نفسه، فالمنهي عنه التقديم مطلقاً، وهذا ما يسمى عند النحاة: تنزيل الفعل المتعدي منزلة الفعل اللازم، وهذا أبلغ عندهم.

وفي هذا بيان للأدب الرفيع، الذي أدب الله به عباده المؤمنين فيما يجب أن يعاملوا به رسوله الأمين ﷺ، من التوقير والتبجيل والإكرام والاحترام وغيرها.

وفي «صحيح البخاري» عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ قال: لا تفتاتوا[٢] على رسول الله ﷺ حتى يقضي الله على لسانه ﷺ، وأما سبب نزول هذه الآية الكريمة، فقد أخرج البخاري في «صحيحه» عن أبي مليكة، أن عبد الله بن الزبير أخبره أنه قدم ركبٌ من بني تميم على رسول ﷺ، فقال أبو بكر رضي الله عنه قدم القعقاع بن معبد،

---

(١) «سنن البيهقي».

(٢) أي لا تفعلوا شيئاً لم يَرِدْ في كتاب الله تعالى، ولم يَرِدْ في سُنَّة النبي ﷺ، وهو مُشتقٌّ من الافتيات، أي: من باب الافتعال، والمعنى: كونوا متبعين لما جاء عن الله تعالى في كتابه، ولما جاء عن رسوله عليه الصلاة والسلام في سُنَّته.

فقال عمر رضي الله عنه: بل أمر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، فقال عمر: ما أردت خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك قوله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ رواه البخاري(١).

وعن قتادة قال: ذكر لنا أن أناساً كانوا يقولون: لو أنزل الله في كذا وكذا، لو صح كذا، فكره الله تعالى ذلك فنزلت الآية(٢).

قال الحافظ ابن كثير معنى الآية: لا تسرعوا في الأشياء قبله، بل كونوا تبعاً له في جميع الأمور، حتى يدخلوا في عموم هذا الأدب.

وفي حديث معاذ رضي الله عنه حينما بعثه النبي ﷺ إلى اليمن قال له: بِمَ تحكم؟ قال: بكتاب الله، قال ﷺ: «فإن لم تجد»؟ قال: بسنة رسول الله ﷺ، قال ﷺ: فإن لم تجد؟ قال رضي الله عنه: أجتهد رأيي ولا آلو، فضرب في صدره فقال عليه الصلاة والسلام: «الحمد لله الذي وفق رسولَ رسولِ الله لما يُرضي الله»(٣).

والغرض من ذكر هذا الحديث أنه أخَّر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة، ولو قدَّمه قبل البحث عنهما، لكان من باب التقديم بين

---

(١) انظر «صحيح البخاري» وعلى هامشه «فتح الباري» (٦/ ١٣٧ـ ١٣٨ـ ١٦٨) و(٩/ ٩٧).

(٢) انظر «تفسير الطبري» (٢٦/ ١١٧)، «وتفسير ابن كثير» (٤/ ٢٠٥)، «وزاد المسير».

(٣) انظر «مسند الإمام أحمد» (٥/ ٢٣٠)، و«سنن الترمذي» حديث رقم ٣٥٩٢، و«سنن ابن ماجه» حديث رقم ١٣٢٧.

يدي الله ورسوله ﷺ، وهذا نموذج لما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ في التأدب بما جاء عن الله تعالى وعن رسوله ﷺ.

وفي قوله تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ في الآية نوع من المجاز الذي يُسمَّى تمثيلاً، و لتوضيح ذلك يُقال: جلست بين يدي فلان، أي: جلست بين الجهتين المسامتتين ليمينه وشماله قريباً منه، فسميت الجهتان يدين، لكونهما على سمت اليدين مع القرب منهما توسعاً كما يسمى الشيء باسم غيره إذا جاوره.

وفي هذا التمثيل فائدة جليلة، وهي تصوير الشناعة والفظاعة فيما نهوا عنه، من الإقدام على أمر من الأمور دون الاحتذاء والتمسك بما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وفائدة هذا الأسلوب الدلالة على قوة الاختصاص، ولما كان عليه رسول الله ﷺ من الله بالمكان الذي لا يخفى لذا سلك به هذا المسلك(١).

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ أي: فيما أمركم به، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ أي: لأقوالكم كلِّها سرِّها وعلانيتها، وقوله: ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: بنيَّاتكم وبكل شيء من أحوالكم، وإظهار الاسم الجليل في قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ﴾ لتربية المهابة والخشية في النفس.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ هذا هو النداء الثاني في هذه السورة الكريمة، وفي إعادة هذا النداء عليهم استدعاء لهم لتجديد الاستبصار عند كل خطاب وارد وتحريك همتهم، لئلا يغفلوا عن تأملهم لما سيُلقى عليهم، فهو أمر في غاية الأهمية،

---

(١) انظر «تفسير النسفي» (٤/ ١٦٥).

لاسيما وأنه يتعلق بنبيهم ﷺ صاحب الفضل عليهم، الذي أنقذهم من الظلمات إلى النور، كما قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ الآية[١]، فأنقذكم منها بمحمد ﷺ[٢].

وقوله ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾أي: إذا نطق ونطقتم فعليكم ألاّ تبلغوا بأصواتكم وراء الحد الذي يبلغه بصوته، وأن تغضُّوا منها بحيث يكون كلامه عالياً كلامكم، و جهره باهراً جهركم حتى تكون مزيته عليكم لائحة، وسابقته لديكم واضحة.

﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي: إذا كلمتموه وهو صامت، فإياكم والعدول لما نهيتم عنه من رفع الصوت فتبلغوا حدَّ الجهر عند مخاطبته ﷺ كما يجهر بعضكم في الحديث مع بعض، بل يجب عليكم أن تلتزموا في مخاطبته القول اللين القريب من الهمس الذي يضاد الجهر، ولا تخاطبوه باسمه وكنيته كما يخاطب بعضكم بعضاً، فتقولوا: يا محمد، يا أحمد، ولكن خاطبوه بالنبوة، كقولكم: يا نبي الله، يا رسول الله، مع مراعاة السكينة تعظيماً لقدره الشريف ومقامه المنيف.

والآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٣].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: قال الضحاك، عن ابن عباس: كانوا

---

(١) آل عمران: الآية: ١٠٣.

(٢) انظر تفسير «زاد المسير» لابن الجوزي (١/ ٤٣٣).

(٣) النور: الآية ٦٣.

يقولون: يا محمد، يا أبا القاسم، فنهاهم الله عز وجل عن ذلك إعظاماً لنبيه ﷺ.

قال قتادة: أمر الله تعالى أن يُهاب نبيه ﷺ وأن يُبَجَّل وأن يُعظَّم وأن يُسوَّد.

وقال مقاتل: في قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ.... ﴾ يقول لا تسموه إذا دعوتموه يا محمد، ولا تقولوا يا ابن عبد الله، ولكن شرفوه فقولوا يا نبي الله، يا رسول الله، قلت: وهذا ما رجحه ابن كثير رحمه الله في تفسيره لهذه الآية، فقال: هذا هو الظاهر من السياق[(١)].

وقال الإمام محمد بن علي الشوكاني: قال سعيد بن جبير ومجاهد: المعنى: قولوا: يا رسول الله في رفق ولين، ولا تقولوا: يا محمد بتجهم[(٢)].

ولما نزلت هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ تسابق أصحاب النبي ﷺ إلى الزيادة في كمال الأدب معه ﷺ، روى الحاكم[(٣)] وصححه البزار وغيرهما، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول الله، لا أُكَلِّمُكَ إلا كأخي السِّرار حتى ألقى الله عز وجل قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. وفي «صحيح البخاري» وغيره، عن الزبير رضي الله عنه، أن

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٠٦).
(٢) «فتح القدير» للإمام العلامة محمد بن علي الشوكاني، بتحقيق الدكتور عبد الرحمن مسيرة (٤/ ٥٨).
(٣) «المستدرك» للحاكم (٢/ ٤٦٢).

عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد نزول هذه الآية: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ كان إذا تكلم عند النبي ﷺ لم يسمع كلامه حتى يستفهمه[1]، وهكذا بقية الصحابة رضي الله عنهم، كانوا يخافون من هذه الآية الكريمة، لما فيها من التهديد بحبوط أعمالهم الصالحة وهم لا يشعرون.

ففي «صحيح البخاري» وغيره، واللفظ له، عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس بن شماس[2]، فقال رجل: يا رسول الله أنا اعلم لك علمه[3]، فأتاه فوجده جالساً في بيته منكّساً رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شرٌ، (كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله وهو من أهل النار)، فأتى الرجلُ النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا، فقال ﷺ: «اذهب إليه فقُل له: إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة»[4].

وقوله تعالى: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: إنما نهيناكم عن رفع الصوت عند النبي ﷺ خشية أن يؤذيه تصرفكم هذا، ويزعجه صوتكم

---

(١) «صحيح البخاري» وعلى هامشه «فتح الباري» (١٠/ ٢١٣).

(٢) ثابت بن قيس بن شماس بن زهير بن مالك بن امرىء القيس الأنصاري الخزرجي، خطيب الأنصار، وخطيب النبي ﷺ، شَهِدَ أحداً وما بعدها، وبشره النبي ﷺ بالجنة في قصة شهيرة رواها البخاري انظر (٤/ ١٨٠)، وفي الترمذي بإسناد حسن، عن أبي هريرة رضي الله عنه رفعه: «نعم الرجل ثابت بن قيس»، وقُتِلَ يوم اليمامة شهيداً في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه. انظر «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلاني (١/ ١٩٥)، و«الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر النمري القرطبي (١/ ١٩٢)، و«أسد الغابة في معرفة الصحابة» لابن الأثير (١/ ٢٧٥).

(٣) أي: خبرُه.

(٤) «صحيح البخاري» وعلى هامشه «فتح الباري» (١٠/ ٢١٣ ـ ٢١٤).

المرتفع بغير داع ولا سبب، فيغضب من ذلك، ويغضب الله تعالى لغضبه، فيحبط عمل من أغضبه وهو لا يدري، فقد جاء في الحديث الصحيح مما يماثل هذا، وهو قوله ﷺ: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يُلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يُلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم»[1].

وقوله تعالى: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ أي: تبطل وتفسد وتذهب سدى.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: تبطل أعمالكم من حيث لا تشعرون ولا تدرون، فإن في رفع الصوت والجهر بالكلام في حضرته ﷺ استخفافاً وإيذاءً قد يؤدي إلى الكفر المحبط للعمل.

أوجه حبوط العمل:

حبوط العمل يكون على ثلاثة أوجه، واستكمالاً للفائدة يجب التنبيه عليها لكي نتجنبها جميعاً، لأنها مزالق خطرة يقع فيها الإنسان دون أن يشعر، فتحبط أعماله، وتذهب أدراج الرياح، فيكون قد خسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

الوجه الأول: أن تكون الأعمال دنيوية خالصة لا يؤمن صاحبها بالله ولا باليوم الآخر، فهذه الأعمال وإن كان شيء منها صالحاً كإنفاق النفقات، والمشاركة في الأعمال الخيرية الخاصة أو العامة، فإنها لا تغني في الآخرة شيئاً عن صاحبها، إذ لا ينفع عمل مع الكفر بخالق العامل

---

(١) «صحيح البخاري» (٧/ ١٨٥)، «صحيح مسلم» (٤/ ٢٢٩٠)، وانظر ابن ماجه (٢/ ١٣١٣)، والترمذي (٤/ ٥٥٩)، و«مسند الإمام أحمد» (٣/ ٤٦٨) واللفظ للبخاري.

والعمل، وليس بعد الكفر ذنب، وليس بعد الكفر قرب، قال تعالى في حق أمثال هؤلاء: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[(١)].

الوجه الثاني: أن تكون الأعمال أخروية، ولكن صاحبها لم يقصد بها وجه الله تبارك وتعالى، إنما قصد بها أموراً أخرى، كالرياء والسمعة والمفاخرة، فهي محبطة أيضاً وليس لصاحبها ثواب عند الله تعالى، وفيما رواه الإمام مسلم[(٢)] من حديث رسول الله ﷺ العبرة والدليل والكفاية، فقد رُوِيَ: عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأُتِيَ به، فعرَّفه نعمه فعرفها، فقال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتى استشهدتُ، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى أُلقِيَ في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأُتِيَ به، فعرَّفه نعمه فعرفها، فقال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال قارى، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى أُلقِيَ في النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال، فأُتِيَ به، فعرَّفه نعمه فعرفها، فقال: فما عملت فيها؟ فقال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيه إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك أنفقت ليقال هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى أُلقِيَ في النار»، نعوذ بالله ونستجير به من حبوط الأعمال وسوء

(١) الفرقان: الآية ٢٣.
(٢) «صحيح مسلم» بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (٣/ ١٥١٤).

الأحوال، فمن لم يُرِدْ وجه الله تعالى بعمله خالصاً مخلصاً فقد حبط عمله وبطل أمله.

الوجه الثالث: أن يقوم المرء بأعمال صالحة كريمة ولكنه إلى جانب ذلك يقوم بسيئات كبيرات تطغى على هذه الأعمال الصالحة فتحبطها وتأكلها أكلاً لَمّاً، كما تأكل النار الحطب، ويكون ذلك الإنسان كمن خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فهذا أيضاً من الذين ستحبط أعمالهم، ولا ينالون بها ثواب الله عز وجل، إلا إذا تداركته رحمة الله تعالى.

روى الإمام مسلم(١) وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: «إن المُفلسَ من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه، أُخِذَ من خطاياهم فطُرحت عليه، ثم طُرح في النار».

فهذه ثلاثة أوجه ومسالك تحبط فيها الأعمال وتبطل، فلا يستفيد منها صاحبها، ولا تأتي بثمراتها الطيبة، فليحذر العبد أن ينسلك فيها ويتورط فيها، فقد حذرنا الإسلام منها، ودعانا إلى الإخلاص الكامل في الأقوال والأعمال.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾(٢) أي: الذين

---

(١) «صحيح مسلم» بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (٤/ ١٩٩٧).
(٢) الحجرات: الآية ٣.

يخفضون أصواتهم في حضرة الرسول ﷺ (حياً كان أو ميتاً). فقد كره العلماء رفع الصوت عند قبره الشريف ﷺ، كما كان يكره في حياته وبين يديه، لأنه صلوات الله وسلامه عليه محترمٌ حياً وفي قبره دائماً وأبداً، علماً بأن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أحياء في قبورهم، وجاء في الحديث الصحيح (أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء)[١].

قال القاضي أبو بكر بن العربي: (حرمة النبي ﷺ ميتاً كحرمته حياً، وكلامه المأثور بعد موته في الرفعة مثل كلامه المسموع من لفظه، فإذا قُرِئ كلامُه، وجب على كل حاضر ألا يرفع صوته عليه، ولا يعرض عنه، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به)[٢].

قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ ﴿أولئك﴾ إشارة لرفعة مقامهم، وعلو منزلتهم في التقوى والامتحان، والمحنة في لغة العرب: هو استخلاص الشيء وتصفيته، تقول: امتحنت الذهب، أي: اختبرته في النار حتى خلص الذهب الإبريز.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في معنى ﴿ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ أي: طهرها من كل قبيحٍ، وجعل في قلوبهم التقوى، قال الحافظ ابن كثير: أي: أخلصها للتقوى وجعلها أهلاً ومحلاً[٣].

قال تعالى: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٌ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ أي: لهم في الآخرة صفح عن ذنوبهم، وثواب عظيم في جنات النعيم.

---

(١) كما رواه ابن ماجه في «سننه» (١/ ٣٤٥) بلفظ «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء».

(٢) انظر «أحكام القرآن» لابن العربي (٤/ ١٧١٤).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٢٠٧).

والغفر في اللغة: هو الستر والتغطية(١)، والمغفرة: إلباس الله تعالى ثوب عفوه للمذنب.

والأجر: ما يقابل العمل، وقد وصفه الله بأنه عظيم، ليعلمهم بأنه ليس من باب الأجر مثلاً بمثل، بل إنه سبحانه يضاعفه أضعافاً لا يعلم عددها إلا هو سبحانه، وذلك من باب الفضل الإلهي.

كما قال تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾(٢).

وقد وصف سبحانه فضله بأنه عظيم، وليس لفضله العظيم حدٌّ ولا انتهاء، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾(٣).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٤).

وسبب نزول هذه الآية الكريمة:

ما أخرجه ابن جرير الطبري بسنده عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: جاء أناس من العرب إلى النبي ﷺ فقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يكن نبياً فنحن أسعد الناس به، وإن يكن ملكاً نعش في جناحه، قال: فأتيت النبي ﷺ فأخبرته بذلك، قال: ثم جاؤوا إلى حُجَرِ

---

(١) انظر «لسان العرب» لابن منظور (٥/ ٢٥).
(٢) فاطر: الآية ٣٠.
(٣) الجمعة: الآية ٤.
(٤) الحجرات: الآيات ٤ ـ ٥.

النبي ﷺ فجعلوا ينادونه: يا محمد، فأنزل الله على نبيه ﷺ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، قال: فأخذ نبي الله ﷺ بأذني فمدها فجعل يقول: «قد صدق الله قولك يا زيد، قد صدق الله قولك يا زيد»(١).

وقال ابن إسحاق: نزلت هذه الآية في جفاة بني تميم، وكان فيهم الأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن، والزبرقان بن بدر، وقيس بن عاصم(٢).

وعلى هذا، فالآية الكريمة نزلت في جفاة الأعراب، وفدوا على النبي ﷺ فسألوا عنه في المسجد فلم يجدوه ـ وقد كان من عادته ﷺ أن يستقبل الوفود في المسجد ـ فلما كان من وقت الظهيرة ذهب إلى حجراته ليأخذ راحته وقت القيلولة، فجاؤوا إلى الحجرات، وجعلوا ينادونه ﷺ بصوت جاف: يا محمد اخرج إلينا، وقد تأذى رسول الله ﷺ من ندائهم على هذه الصفة المنافية لقواعد الآداب والأخلاق، وبخاصة و أنه ﷺ كان قد أخذ راحته فنام للقيلولة، وصحا على أصواتهم وهم ينادونه بأعلاها: يا محمد يا محمد اخرج إلينا.

والحجرات: جمع حجرة، كغرفة جمعها غرفات، وهي منازل زوجات النبي صلى الله عليه وآله وسلم الطاهرات رضوان الله عليهن أجمعين(٣).

---

(١) «تفسير الطبري» (٢٦/ ١٢١).

(٢) «أسباب النزول» للواحدي بتحقيق السيد أحمد صقر ص (٤٠٩)، انظر «سيرة ابن هشام» (٤/ ٢٠٧).

(٣) قال السمهودي نقلاً عن ابن النجار: لما تزوج النبي ﷺ نساءه، بنى لهن حجراً=

أخرج البخاري في «الأدب المفرد» بسنده قال: سمعت الحسن رضي الله عنه يقول: كنت أدخل بيوت أزواج النبي ﷺ في خلافة عثمان بن عفان فأتناول سقفها بيدي.

وأخرج البخاري أيضاً في «الأدب المفرد» بسنده عن داود بن قيس، قال: رأيت الحجرات من جريد النخل مغشاة من خارج بمسوح الشعر[١].

هذا، وقد أدخلت تلك الحجرات في المسجد النبوي الشريف في عهد عمر بن عبد العزيز، وبكى الناس لذلك[٢].

وقال سعيد بن المسيب رضي الله عنه حين ذاك: و الله لوددت أنهم تركوها على حالها ليراها النشء من أهل المدينة، ويقدم القادم من الآفاق فيرى ما اكتفى به النبي ﷺ في حياته، فيكون ذلك داعياً إلى ترك التفاخر والتكاثر.

= وهي تسعة أبيات، وهي ما بين بيت عائشة رضي الله عنها إلى الباب الذي يلي باب النبي ﷺ. أ.هـ. قال السمهودي: ومراده بالباب الذي يلي باب النبي ﷺ الباب الذي من الجهة المقابلة له من الغرب، وهو المعروف الآن بباب الرحمة.

قال أهل السير: ضرب النبي ﷺ الحجرات ما بينه وبين القبلة والشرق إلى الشام، ولم يضربها في غربيه، وكانت خارجة من المسجد، مديرة به إلا من المغرب، وكانت أبوابها شارعه في المسجد ا.هـ انظر «وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى» لنور الدين علي بن أحمد السمهودي (٢/ ٤٥٨ـ ٤٥٩).

(١) «الأدب المفرد» وعلى هامشه فضل الله الصمد في توضيح الأدب المفرد (١/ ٥٣٧ـ٥٣٨).

(٢) «نزهة الناظرين في مسجد سيد الأولين والآخرين» للسيد البرزنجي (٤٤) تحقيق أحمد سعيد ابن تسليم.

ونلاحظ أن القرآن الكريم أخبر عن ندائهم بصيغة المضارع ولم يقل: إن الذين نادوك، بل قال سبحانه: ﴿يُنَادُونَكَ﴾ لأجل تحضير الصورة الماضية للسامع بحيث تجعل السامع في غرابة واستقباح ونفرة لما فعله هؤلاء من النداء بالصوت العالي المنافي لأبسط قواعد الأدب والذوق.

ومعنى ﴿يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ أي من خارجها ـ خلفها أو قدامها.

قال بعض أئمة اللغة: إن (وراء) هو من الأضداد فهو مشترك لفظي للخلف والأمام الذي لا يرى.

وهذا الأدب الرفيع الذي نوه به القرآن الكريم، كما هو أدب مع الرسول ﷺ أيضاً يجب أن يكون أدبنا مع الناس كافة، فيجب أن نكون على معرفة تامة بتخير الوقت المناسب وتخير المكان، فلكل مقام مقال، فضلاً عن تخير الألفاظ وأسلوب الكلام سيما مع أهل العلم والفضل، و لا يعرف فضل أهل الفضل إلا ذووه، فليس من الأدب ولا الذوق ولا من العدل والإنصاف أن نزعج الناس في بيوتهم وقد خلدوا إلى الراحة والالتفاف حول أهلهم وذويهم.

وقوله تعالى: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ قال البيضاوي: قيل إن الذي ناداه «عيينة ابن حصن» و «الأقرع بن حابس» وفدا على رسول الله ﷺ في سبعين رجلاً من بني تميم وقت الظهيرة، فقالا: يا محمد اخرج إلينا[١]، فاللذان قاما بالنداء هما اثنان فقط[٢] فكيف أسند النداء إلى الكل وحُكم على أكثرهم بأنهم لا يعقلون؟.

---

(١) تفسير البيضاوي (٤/ ٨٧).
(٢) أو أربعة أشخاص على رواية ابن إسحق.

والجواب على ذلك (والله أعلم) أنه أسند النداء إلى الكل في قوله تعالى: ﴿يُنَادُونَكَ﴾ لأنهم رضوا بذلك وأقروه وأن إقرار المنكر والقبيح هو كعله.

أما الحكم على الأكثر دون الكل بأنهم ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ يحتمل أن منهم من لم يقصد ترك الأدب، بل نادى بدون جفوة ولا رفع صوت.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ وقد نعتهم بأن أكثرهم لا يعقلون، لينبه جلَّ وعلا على فظاعة ما وقعوا فيه، وهو صياحهم برسول الله ﷺ وهو في حال خلوته من وراء جدر كما يصاح بأهون الناس قدراً، كيف وقد فعلوا ذلك مع من رفع الله قدره عن أن يجهر له بالقول! فكان صنيعهم ذلك دليلاً على عدم نضج عقولهم، بل نفي العقل والحكمة منها مطلقاً، وذلك لجهلهم بكيفية الأدب في النداء، وجهلهم في تخير المكان، فضلاً عن جهلهم في تخير الألفاظ في الطلب والنداء.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١) أي أنهم لو صبروا وانتظروا خروجك لكان خيراً لهم وأنفع في دينهم ودنياهم، فإنه صلوات الله وسلامه عليه كان لا يحتجب عن الناس إلا في الأوقات التي يخلد فيها للراحة والقيام بحقوق أهله وبمهمات نفسه، فكان نداؤه في ذلك الوقت وإزعاجه واستعجاله بالخروج من سوء الأدب المنافي لمقام النبوة، فلو أنهم صبروا حتى يحين وقت خروجه ﷺ لكان ذلك خيراً لهم، لما فيه من امتثال الأدب ومراعاة القيام بواجب توقيره وتعظيمه ﷺ. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فهو سبحانه واسع

---

(١) الحجرات: الآية ٥.

المغفرة والرحمة، فلذلك لم يأخذهم بعقاب، ولم يهلكهم بعذاب لسوء أدبهم، حيث اقتصر جلّ وعلا على تقريعهم وتوبيخهم.

وفي هذا تنبيه عام، وإرشاد شامل لجميع الأمة أن يحذروا كل الحذر سوء الأدب مع رسول الله ﷺ.

وهكذا نجد القرآن العظيم يهتم بجميع شؤون المسلمين، فيعلمهم عظائم الأمور وصغائرها، حتى علمهم كيفية النداء، وأسلوب الاستئذان، بل والأوقات التي يسمح فيها بالدخول، والأوقات التي لا يسمح فيها بالدخول إلا بعد الاستئذان، وذلك بالنسبة للأطفال الذين لم يبلغوا الحلم من العبيد والخدم، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ ﴾[1] أي هي ثلاثة أوقات يَخْتَلُّ فيها تستركم، العورات فيها بادية والتكشف فيها غالب، فعلموا عبيدكم وصبيانكم ألا يدخلوا عليكم في هذه الأوقات إلا بعد الاستئذان.

وقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ ﴾[2] أي ليس عليكم ولا على المماليك والصبيان حرج في الدخول عليكم بغير استئذان بعد هذه الأوقات الثلاثة.

وقوله تعالى: ﴿ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ ﴾ أي: لأنهم خدمكم يطوفون عليكم للخدمة وقضاء ما كلفتموهم به. قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[3].

---

(١) النور: الآية ٥٨.

(٢) النور: الآية ٥٨.

(٣) سورة النور: الآية ٥٨.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ﴾ أي مبلغ الرجال وأصبحوا في سن التكليف، وقوله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي علموهم الأدب السامي أن يستأذنوا في كل الأوقات، لأنهم بلغوا مبلغ الرجال قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(١).

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾(٢).

هذا هو النداء الثالث بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ فبعد أن بين تبارك وتعالى في الآيات السابقة وجوب القيام بحقوق الله تبارك وتعالى، ووجوب القيام بحقوق النبي ﷺ، ووجوب الأدب مع الله عز وجل، ووجوب الأدب مع رسوله ﷺ وعدم التقدم على الله عز وجل، وعدم التقدم على النبي ﷺ، وهذا كله في دائرة الأدب الخاص مع الحق تبارك وتعالى والنبي المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، فمن الأدب الخاص تحول الحديث إلى الأدب العام الذي جاء لترسيخ دعائم المجتمع الفاضل، فتأمر الآية الكريمة المؤمنين بالتثبت من الأنباء والأخبار، وعدم السماح للشائعات، ولا سيما إذا كان الخبر صادراً عن شخص غير عدل أو شخص متهم، فكم من كلمة نقلها فاجر فاسق سببت كارثة فادحة، وكم من خبر لم يتثبت منه سامعه جَرَّ وبالاً وخراباً، وأحدث انقساماً لا يحمد عقباه.

وفي الآية الكريمة إشارة لطيفة إلى أن المؤمن ينبغي أن يكون حذراً

---

(١) سورة النور: الآية ٥٩.

(٢) الحجرات: الآية ٦.

يقظاً، لا يقبل كل كلام يلقى على مسامعه دون أن يعرف المصدر الذي صدر عنه، ونلاحظ أن كلمة (فاسق) جاءت نكرة وذلك للتعميم، لأنه نكرة في سياق الشرط، وهي تفيد العموم، كما قرر ذلك علماء الأصول، والمعنى: (إن جاءكم فاسق فتثبتوا من خبره) وجاء بحرف التشكيك (إن) ولم يقل (إذا) التي تفيد التحقيق.

وذلك إشارة إلى أن صدور مثل هذا إنما هو إن حدث فإنما يحدث نادراً، إذ الأصل في المؤمن أن يكون صادقاً[١].

والفاسق: هو الخارج من حدود الشرع وعن طاعة الله عز وجل، فإن خرج عن العقائد الإيمانية فهو الكفر، وإن كان خرج عن الواجبات الدينية، أو وقع في المنهيات المحرمة شرعاً فهو العصيان.

قال الراغب الأصفهاني: فسق فلان، خرج عن حَجْرِ الشرع، وذلك من قولهم فسق الرطب إذا خرج عن قشره، وهو أعم من الكفر، والفسق يقع بالقليل من الذنوب وبالكثير، لكن تعورف فيما كان كثيراً[٢].

وقوله تعالى: ﴿بِنَبَإٍ﴾ النبأ في اللغة: الخبر المهم، والجمع أنباء، كذا في القاموس واللسان، ولا يقال للخبر نبأ إلا إذا كان هاماً ذا فائدة عظيمة يحصل بها علم أو غلبة ظن[٣].

وقوله تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ التبين: طلب البيان والتعرف، وقريب منه

---

(١) انظر تفسير الألوسي (٢٦/ ١٤٥).
(٢) انظر «المفردات في غريب القرآن» للراغب الأصفهاني (٩٣٨).
(٣) انظر «المفردات في غريب القرآن» للراغب الأصفهاني (٤٨٠).

التثبت، والمراد به هنا التحقق والتثبت من الخبر، حتى يكون الإنسان على بصيرة من أمره.

ومعنى الآية: إن جاءكم فاسق بنبأ عظيم له مدلولات ونتائج خطيرة، فلا تقبلوا قوله حتى تتثبتوا وتتحققوا من صدقه لتأمنوا العاقبة.

وقوله تعالى: ﴿فَتُصْبِحُواْ﴾ أي فتصيروا بعد ظهور براءتهم عما رُموا به واتُّهِموا، ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ﴾ أي في حقهم من الأذى والانتقام أو سوء الظن بهم، ﴿نَـٰدِمِينَ﴾ أي آسفين.

والندم: الغم على وقوع شيء مع تمني عدم وقوعه.

وسبب نزول هذه الآية ما أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» عن عيسى بن دينار أنه سمع الحارث بن ضرار الخزاعي رضي الله عنه(١) يقول: قدمت على رسول الله ﷺ فدعاني إلى الإسلام، فدخلت فيه وأقررت به، فدعاني إلى الزكاة، فأقررت بها، وقلت: يا رسول الله، أرجع إلى قومي فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة، فمن استجاب لي جمعت زكاته، وترسل إليّ يا رسول الله رسولاً إبان كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة، فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له، وبلغ الإبّان الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه احتبس عليه الرسول فلم يأته، فظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من الله عز وجل ورسوله، فدعا سَروات قومه فقال لهم: إن رسول الله ﷺ كان وقَّتَ لي وقتاً يرسل إليَّ رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة، وليس من رسول الله الخلف، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة كانت، فانطلقوا نأتي رسول الله ﷺ ـ وفي هذه الحال وهم

(١) انظر «أسدُ الغابة» (١/ ٣٩٩).

يتحادثون مجتمعين ويتذاكرون في سبب تأخير المبعوث من قِبَل رسول الله ﷺ إلى الحارث وجماعته - بعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة[١] بن أبي معيط إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد بن عقبة، حتى بلغ بعض الطريق فَرَقَ - أي خاف - فرجع حتى أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي - نضب رسول الله ﷺ وبعث البعث إلى الحارث رضي الله عنه - وأقبل الحارث بأصحابه، حتى إذا استقبل البعث وفصل من المدينة لقيهم الحارث، فلما غشيهم قال لهم: إلى من بعثتم؟ قالوا: إليك. قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ كان بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله، فقال رضي الله عنه: لا، والذي بعث محمداً بالحق، ما رأيته بتة ولا أتاني.

فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال: «منعت الزكاة وأردت قتل رسولي؟» قال: لا، والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني، وما أقبلت إلا حين احتبس عليَّ رسول رسول الله ﷺ خشيت أن تكون كانت سخطة من الله تعالى ورسوله. فنزلت هذه الآية الكريمة من سورة الحجرات: قال

---

(١) الوليد بن عقبة بن أبي معيط: هو أخو عثمان بن عفان لأمه، أسلم يوم فتح مكة، وبعثه رسول الله ﷺ مصدقاً إلى بني المصطلق، وفيه نزلت الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق﴾ الآية. قال ابن عبد البر: (لاخلاف بين أهل العلم بتأويل القرآن أنها نزلت فيه)، وولاه عمر على صدقات بني تغلب، وولاه عثمان الكوفة بعد سعد بن أبي وقاص فصلى بأهلها وهو سكران، فقال: أزيدكم؟! فشهدوا عليه بشرب الخمر عند عثمان، فعزله وحدَّه، والقصة في الصحيحين، ومات بناحية الرقة. أ هـ انظر «الإصابة في تمييز الصحابة» (٣/ ٦٣٧).

تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ أي أعلموا أن بين أظهركم رسول الله السيد المبجل والنبي المعظم المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، فعظموه ووقروه وتأدبوا معه، وانقادوا لأمره، فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم منكم، ورأيه فيكم أتم من رأيكم في أنفسكم، فلا تحاولوا أن تستميلوه لرأيكم، وليس المقصود من قوله تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ ظاهر الخبر بوجوده بينهم صلوات الله وسلامه عليه، لأن ذلك معروف لديهم، ولا يخفى على أحدٍ منهم، بل المقصود لازم الخبر الذي يستدعي التحرز والتوقي والحذر التام من الكذب والبهتان، فإنه إن خفي كذبهم على الناس أو حتى على رسول الله ﷺ فإن الله لا يخفى عليه شيء مما تضمره نفوسهم وتنطق به ألسنتهم.

وقوله تعالى: ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ أي: لو أنه أطاعكم في جميع أو غالب ما تشيرون به عليه لأدى ذلك إلى مشقتكم وحرجكم ولوقعتم في الجهد والتعب والهلاك.

ونلاحظ في قوله تعالى: ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ ﴾ أنها جاءت بصيغة المضارع

---

(١) «الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني» (١٨/ ٢٨٢).

(٢) الحجرات: ٧-٨.

لما في ذلك من التنبيه لجميع الأمة عامة الذين أدركوه في حياته والذين يأتون من بعده ـ إلى قيام الساعة ـ أن ما قاله ﷺ وحكم به هو الخير، ولا خير أفضل منه، والأحسن ولا حسن أحسن منه، فما على الأمة إلا التسليم له ﷺ تسليماً كاملاً، لأنه صادر عن حكمة بالغة وحُجة دامغة.

فهو ﷺ الرؤوف الرحيم والرحمة المهداة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ أي: ولكن الله ـ بمنه وفضله ـ حفظه وحفظكم ونور بصائر أتباعه المؤمنين، وحبب إليهم الإيمان، وبغَّض إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وهذه نعمة عظيمة على المؤمنين، ومنة كبرى إذ زين الإيمان في قلوبهم وثبتهم عليه، وجعلهم يرونه حسناً، وأنه لا حياة لهم بدونه.

وقوله تعالى: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾ أي: بغض إليكم الكفر الذي هو ضد الإيمان والفسوق، وهو كبائر الذنوب، والعصيان: وهي صغائر الذنوب التي لا تشمل سائر المعاصي.

وقوله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ إشارة إلى رفعة مرتبتهم وعلو مقامهم، فجيء بأولئك الدالة على بُعد الرتبة وعُلُوِّها، كما أن هذه الآية تدل على حصر الرشد في المؤمنين الذين أحبوا الإيمان وعشقوه، فهم

---

(١) الأنبياء: الآية ١٠٧.
(٢) التوبة: الآية ١٢٨.

أهل الرشد والصلاح والنجاح في الدنيا والآخرة.

وقوله تعالى: ﴿ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي: هذا العطاء تفضلاً منه تعالى عليكم وإنعاماً، وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي عليم بمن يستحق الهداية، حكيم في خلقه وصنعه وتدبيره.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[1].

ومناسبة هذه الآية الكريمة لما قبلها، هو أنه لما أمر سبحانه وتعالى بالتثبت في نقل الأخبار التي قد توقع في المخاوف والأخطار، عقَّب سبحانه وتعالى على ما يترتب على سماع الأنباء المكذوبة من تخاصم وتباغض وتقاتل فقال: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ ﴾ فجيء بـ (إن) الدالة على أنه لا ينبغي أن يقع بين المؤمنين شيء من ذلك، ولكن إن حصل شيء من سوء التفاهم، فلتبادر طائفة من المؤمنين إلى الإصلاح بينهما فوراً، ولتبذل جهدها مهما كلف الأمر للإصلاح بينهما.

ونلاحظ أن قوله تعالى: ﴿ ٱقْتَتَلُوا۟ ﴾ جاءت بالجمع، وفي ذلك إشارة إلى قبح تلك الصورة منهم، ولم يقل تعالى (اقتتلتا) بضمير التثنية والتأنيث مع أنهما طائفتان، بل قال تعالى: ﴿ ٱقْتَتَلُوا۟ ﴾ بالجمع للحكمة التي أسلفت.

وقوله تعالى: ﴿ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ ﴾ بأجدى وأسرع أسباب الصلح، وذلك بالنصح لكل من الطرفين، والتذكير بأنهم مؤمنون، والإيمان إنما

(١) الحجرات: الآية ٨.

جاء بالسلم والأمان، وإذا كانت هناك شبهة أزالوها، أو أخبار ذميمة أبطلوها، ولو أدى ذلك الإصلاح بينهما إلى الكذب، فإن الكذب في باب الإصلاح بين الطرفين أباحه الشارع الحكيم دفعاً للفساد عن الطرفين، كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي(١)، عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يصلح الكذب إلا في ثلاث: يحدث الرجل امرأته ليرضيها، والكذب في الحرب، والكذب ليصلح بين الناس».

وهذه الآية الكريمة: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ أكرم الله بها هذه الأمة، فجعلهم حراساً على العدل قوامين بالقسط، شهداء على الحق، دعاة خير وإصلاح وبناء، لا دعاة شرٍّ وإفساد، صالحين مصلحين، آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر.

ومن شأن من يضعه الله في هذا الموضع الرفيع، أن يقدِّم كل ما يملكه تلبية لهذا الواجب المقدس، فإذا اقتتلت طائفتان من المؤمنين لشبهة دخلت عليهما، وكلتاهما ترى نفسها مُحقة صادقة، وجب إزالة هذه الشبهة وإطلاعهما على طريق الحق والصواب، لأن مَن خاصم عَميت عليه السُّبل، ولم يَرَ الرشد إلا فيما سلك من طريق، فوجب على المسلمين هدايته وإيقافه عند حده لئلا يتيه في طريق عميت عليه مسالكه، فإن ركبت الطائفتان متن الشطط والغواية والعناد، ولم تعملا بما هُدِيَتا إليه ونُصِحَتا به اعتُبرتَا في حكم الباغيتين الظالمتين وحورِبَتا معاً حتى تعودا إلى الصواب والسداد وَيكُفَّا عن الحرب والغواية، وذلك نصرٌ لهما وإنجادٌ وتخليص.

(١) سنن الترمذي (٤/ ٣٣١).

ثبت في الصحيح[١] عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قلنا: يا رسول الله نصرته مظلوماً فكيف أنصره ظالماً؟ قال رسول الله ﷺ: «تُكفّه عن الظلم فذاك نصرك إياه»[٢].
وسبب نزول هذه الآية ما أخرجه الشيخان واللفظ للبخاري عن أنس رضي الله عنه قال: قيل للنبي ﷺ: لو أتيت عبد الله بن أُبيّ فانطلق إليه النبي ﷺ فركب حماراً، وانطلق المسلمون يمشون وهي أرضٌ سَبِخة، فلما أتاه النبي ﷺ قال: إليك عني فو الله لقد آذاني نَتْنُ حمارك، فقال رجل من الأنصار: والله لحَمارُ رسول الله ﷺ أطيبُ ريحاً منك، فغَضِبَ لعبد الله رجل من قومه وغَضِبَ لكل واحد منهما أصحابه، فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فبلغنا أنه أُنزِلت فيهم: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾ أي فإن بغت إحداهما على الأخرى وتجاوزت حدها بالظلم والطغيان، ولم تقبل النصح وصممت على البغي، حينئذٍ يقف المسلمون مع المظلوم على الظالم حتى يرضى بحكم الله.

والبغي: هو تجاوز الحد والاستطالة وإباء الصلح، فقوله تعالى: ﴿فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: فقاتلوا الفئة الباغية حتى ترجع إلى حُكم الله وشرعه، وتقلع عن البغي والعدوان، والفيء: الرجوع

---

(١) رواه البخاري (٨/ ٥٩) والإمام أحمد (٣/ ٩٩) وسنن الترمذي (٤/ ٥٢٣) واللفظ له.
(٢) انظر نظرات في سورة الحجرات للشيخ محمد الصواف (٩٨، ٩٩).
(٣) رواه البخاري (٦/ ٢٢٦ فتح). «الفتح الرباني» (١٨/ ٢٨٤).

إلى حالة محمودة[١]. وقوله تعالى: ﴿فَإِن فَآءَتۡ﴾ أي رجعت وكفَّت عن القتال، فأصلحوا بينهما بالعدل دون حيف على إحدى الفئتين، واعدلوا في جميع أموركم، والعدل: ضد الظلم والجور.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ يُقال: أقسط الرجل إذا عدل، ومنه قول النبي ﷺ «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عزَّ وجلَّ، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»[٢].

أما قولك: (قسط الرجل) أي إذا جار ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا﴾[٣] فالرباعي بمعنى العدل والثلاثي بمعنى الظلم، وعليه فمعنى قوله تعالى: ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ أي: يحب العادلين الذين لا يجورون في أحكامهم، قال البيضاوي: والآية نزلت في قتال حدث بين الأوس والخزرج في عهده ﷺ كان فيه حرب بالسعف والنعال، والآية تدل على أن الباغي مؤمن، وأنه إذا كف عن الحرب تُرك، وأنه يجب تقديم النصح والسعي في المصالحة[٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ هذه الآية الكريمة تقرر أصلاً من أصول الإسلام العظيم، فبعد أن أمر الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين بالإصلاح بين الطائفتين المؤمنتين،

---

(١) انظر «المفردات في غريب القرآن» للراغب الأصفهاني (٣٨٩).
(٢) «مسند الإمام أحمد» ٢/ ١٦٠، «صحيح مسلم» (١٨٢٧).
(٣) سورة الجن: الآية ١٥.
(٤) انظر «تفسير البيضاوي» (٤/ ٨٨).

ذكّر تبارك وتعالى عباده في هذه الآية بعقد الأخوة الذي ربطه الله تعالى بينهم، إذ إن طبيعة البشر عُرضة لأن ينزغ الشيطان بينهم فيختلفوا ويتنازعوا، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، والمتمعن في هذه الآية الكريمة يجد أنها جاءت وكأنها قررت أمراً واقعاً مفروغاً منه لا يُردُّ ولا يُصدُّ، فقالت: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ هكذا حكم الله، وهكذا أخبر عن هذا العقد الذي ربطه في السماء بين المؤمنين مهما اختلفت أجناسهم، وتباينت لغاتهم، وتباعدت أقطارهم، وتناءت ديارهم، فهم إخوة تجمعهم عقيدة خالدة ورسالة واحدة، وهكذا جاءت الجملة خبرية لتقرر واقعاً عظيماً وتخبر عنه فقالت: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ ولم تأت الجملة إنشائية، إذ لم يقل الله تعالى: يا أيها الذين آمنوا كونوا إخوة أو تواصوا بالأخوة فيما بينكم، إذ لو جاءت الآية هكذا (إنشائية) لكانت الأخوة غير موجودة، ولكنه عز وجل ربط قلوب المؤم

نين برباط واحد وعقد هذا الرباط، ثم أخبر عن هذه الحقيقة الثابتة الواقعة وقضى فيها بحكمة فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ ثم أكد هذه الأخوة ﷺ حين قال: «المسلم أخو المسلم فلا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، بحسب امرى من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه»[1]

وقوله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾: أي فأصلحوا بين إخوانكم المؤمنين، ولا تتركوا الفرقة تدب والبغضاء تعمل عملها.

---

(١) «صحيح مسلم» (٣/ ١٤٥٨).

روى الترمذي(١)، وأبو داود(٢)، والإمام أحمد(٣)، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟» قالوا: بلى، فقال ﷺ: «إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة».

وفي رواية أنه ﷺ قال: «هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين».

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: اتقوا الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب مناهيه، لتنالوا رحمته وتسعدوا بجنته ومرضاته.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾(٤) لما أمر تبارك وتعالى في الآية السابقة بإصلاح ذات البين ونهى عن التفرق، وأخبر عن عقد الأخوة الذي ربطه الله تعالى برباط الإيمان الوثيق، عقّب في هذه الآية الكريمة(٥) لعباده المؤمنين بالنهي عن أسباب الفرقة التي تؤدي إلى الشقاق والمشاحنات والبغضاء قائلاً لهم: يا معشر المؤمنين، يا من اتصفتم بالإيمان وصدقتم بكتاب الله ورسوله ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾.

---

(١) الترمذي (٤/ ٦٦٣).
(٢) أبو داود (٤/ ٥٧٨).
(٣) «مسند أحمد» (٦/ ٤٥٥).
(٤) هذه الآية الكريمة تعتبر النداء الرابع في هذه السورة الكريمة بلفظ ﴿ياأيها الذين آمنوا﴾.
(٥) سورة الحجرات: الآية ١١.

قال الأصفهاني[١]: القوم جماعة الرجال في الأصل دون النساء، ولذلك قال تعالى ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ الآية.

وقال الشاعر:

وما أدري ولست إخال أدري أقومٌ آل حصنٍ أم نساءُ

وفي عامة القرآن أريد به أي الرجال والنساء جميعاً.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ أي: لا يهزأ جماعة بجماعة، ولا يسخر أحد من أحد، فقد يكون المسخور منه خيراً وأحب عند الله تبارك وتعالى من الساخر.

وفي الحديث «رُبَّ أشعث أغبر ذي طمرين[٢] لو أقسم على الله لأبرَّه»[٣].

فالسخرية بالخلق والازدراء بالناس، والهمز واللمز والتنابز بالألقاب، ما هي إلا عوامل للفساد، ومعاول لهدم الأخوة بين المؤمنين، بل هي الفسوق بعينه، الذي لا يناسب الإيمان الذي يتحلى ويتجمل به المؤمنون البررة، لذا نهى الله عزَّ وجل في هذه الآية الكريمة عن هذه الأخلاق المهلكة المكدرة لصفو المجتمع، والتي تأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، المنافية للأخوة الإيمانية

(١) «المفردات في غريب القرآن» للراغب الأصفهاني (٤١٨).
(٢) الطمرُ: الثوب الخَلِقْ. وخص ابن الأعرابي به الكساء البالي من غير الصوف. انظر «لسان العرب» (٤/ ٥٠٣).
(٣) انظر «سنن ابن ماجه» (٢/ ١٣٧٨)، «سنن الترمذي» (٥/ ٦٩٢).

فالسخرية: هي الاستهزاء والنظر إلى المسخور بعين النقص والازدراء به قولاً أو فعلاً بحضرته.

وسبب نزول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ قال الواحدي: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس[١]، وذلك أنه كان في أذنيه وقر[٢] فكان إذا أتى رسول الله ﷺ أوسعوا له حتى يجلس إلى جنبه فيسمع ما يقول، فجاء يوماً وقد أخذ الناس مجالسهم، فجعل يتخطى رقاب الناس ويقول: تفسحوا تفسحوا، فقال له رجل: قد أصبت مجلساً فاجلس، فجلس ثابت مغضباً، فغمز الرجل فقال: من هذا؟ فقال: أنا فلان، فقال ثابت: ابن فلانة؟ وذكر أماً كانت له يُعير بها في الجاهلية، فنكس الرجل رأسه استحياءً، فأنزل الله تعالى هذه الآية[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ أي: ولا يسخر نساءٌ من نساءٍ، فعسى أن تكون المحتقر منها خيراً عند الله وأفضل من الساخرة.

قال الواحدي: نزلت في نساء النبي ﷺ عَيَّرْنَ أم سلمة بالقِصَر.

وعن ابن عباس: أن صفية بنت حُييّ بن أخطب أتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن النساء يعيرنني ويقلن: يا يهودية بنت يهوديين، فقال رسول الله ﷺ «هلا قُلتِ: إن أبي هارون وإن عمي موسى، وإن زوجي محمد» فأنزل الله هذه الآية[٤] ناهية عن هذا الأسلوب من السخرية

---

(١) سبق ترجمته انظر ص ٦٢.
(٢) ثقل في الأذن. بالفتح، انظر «لسان العرب» (٥/ ٢٨٩).
(٣) «أسباب نزول القرآن» للواحدي بتحقيق السيد أحمد صقر (٤١٥).
(٤) «أسباب نزول القرآن» للواحدي تحقيق السيد أحمد صقر (٤١٦) وانظر «تفسير القرطبي» (١٦/ ٢١٦).
=

والاستهزاء مما لا يليق بالمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات.

والمتمعن في الآية يلاحظ أنه جاء التعبير في السياق بقوله: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾، ﴿وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ﴾ ولم يقل لا يسخر رجل من رجل ولا امرأة من امرأة على التوحيد والإفراد، والعلة في ذلك ـ والله أعلم ـ أن في ذلك إشارة من الحق تبارك وتعالى بإقدام غير واحد من رجالهم وغير واحدة من نسائهم على السخرية، واستفظاعاً للشأن الذي كانوا عليه، ولأن مشهد الساخرين لا يكاد يخلو ممن يتلهى ويستضحك على قوله، ولا يأتي ما يجب عليه من النهي والإنكار فيكون شريك الساخر، وأيضاً هناك في المجلس من يطرق سمعه فيستطيبه ويضحك به، فيؤدي ذلك ـ وإن أوجده واحد ـ إلى أن تكثر السخرية، ويعم الاستهزاء من قِبَل القوم كلهم، أو النساء جميعهن[١].

وقوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ هذه الجملة من الآية استئنائية وردت مورد جواب المستخبر عن العلة الموجبة للنهي عن السخرية، فقيل للشخص المستخبر أو المتسائل: إن هذا المسخور منه قد يكون أفضل وأكرم عند الله تعالى من الساخر، ويجب على كل مسلم أن يفترض أن الشخص المسخور منه ربما كان عند الله خيراً من الساخر، والمستهزأ به أفضل من المستهزِئ، لأن الناس لا يطلعون ولا يعلمون إلا ظواهر الأحوال، ولا عِلم لهم بالخفيات والمستورات، قال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾[٢].

---

(١) انظر تفسير «الكشاف» (بتصرف) (٣/ ٥٦٥).
(٢) سورة النجم: الآية ٣٢.

فينبغي ألا يجترىء أحد على الاستهزاء بمن تستحقره عينه إذا رآه رث الحال أشعث أغبر، ذا عاهة في بدنه، أو صغيراً في وظيفته، أو فقيراً في مظهره أو مسكنه، فلعل هذا الذي تسخر منه ـ أو تسخرين منها ـ يكون أخلص ضميراً وأنقى قلباً وأصفى روحاً، وأسمى خُلُقاً، وأرفع منزلة عند الله منك، فلا تظلم نفسك بتحقير من رضي الله عنه ورفع شأنه وأكرمه برضاه، وقد بلغ الخوف من بعض السلف رضي الله تعالى عنهم من هذه الآية، أن جاهدوا أنفسهم في التوقي والحذر من الوقوع في السخرية بالناس. لذلك قال عمرو بن شرحبيل: لو رأيتُ رجلاً يَرضَعُ عنزاً فضحكت منه لخشيتُ أن أصنع مثل الذي صنع، وعن عبد الله بن مسعود: البلاء موكل بالقول لو سخرت من كلب لخشيت أن أُحَوّلَ كلباً[١].

وصدق رسول الله ﷺ القائل: «وهل يكبُّ الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»[٢].

وقوله ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأساً يهوي بها سبعين خريفاً في النار»[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ اللمز: هو ذكر معايب الغير والطعن فيه، قال صاحب اللسان: (اللَّمزُ كالغمز في الوجه تلمزه بعينك بكلام خفي... ورجل لمزة يعيبك في وجهك ورجل همزة يعيبك في الغيب)[٤].

---

(١) انظر «تفسير القرطبي» (١٦/ ٣٢٥).
(٢) رواه الترمذي (٥/ ١٢).
(٣) رواه الترمذي (٥/ ٥٥١).
(٤) «لسان العرب» (٥/ ٤٠٦).

واللمز والهمز متقاربان في المعنى، فإذا اجتمعا خُصّ كل منهما لمعنى، وإذا أفرد أحدهما شمل الأخر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ نهى الله تعالى المؤمنين أن يعيب بعضهم بعضاً، وجاء النهي الإلهي بصيغة ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ تنبيهاً إلى أن المسلمين كنفسٍ واحدة، فجعل اللامز أخاه لامزاً نفسه، لأن المؤمنين كالجسد الواحد، فلا يليق أن يطعن بعضهم بعضاً، لأن الطاعن في هذه الحالة يطعن نفسه ويطعن جسده، بنفس السهم الذي طعن به أخاه، وقد جاء في الحديث عنه ﷺ: «المؤمنون كرجل واحد إذا اشتكى رأسُهُ تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»[(١)].

ومثلها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ أي يسلم بعضكم على بعض.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾ التنابز بالألقاب: أي التداعي بها.

وأصل النبز: اللقب والجمع الأنباز، والنَّبْزُ بالتسكين: المصدر تقول نَبَزَه ينبُزُهُ أي يلقبه[(٢)].

والألقاب جمع لقب وهو في الأصل: ما أشعر بمدح أو ذم ولكن المراد به هنا لقب السوء الذي يتأذى به المُخَاطَب ويكرهه، قال الأصفهاني: (واللقب ضربَان، ضَربٌ على سبيل التشريف كألقاب

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٧٧) ومسلم (٤/ ٢٠٠٠) وأحمد(٤/ ٢٧٦) واللفظ له.

(٢) انظر «لسان العرب» (٥/ ٤١٣).

السلاطين، وضَربٌ على سبيل النَّبز، ومنه قوله: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ﴾[١].

قال ابن عباس: التنابز بالألقاب: أن يكون الرجل عَمِلَ السيئات ثم تاب منها وراجع الحق، فنهى الله أن يُعَيَّرَ بما سلف من عمله[٢].

وخلاصة القول أن النبز، هو لقب السوء الذي يتأذى منه الشخص لِعاهةٍ خِلقية أو خُلُقية، أو فِعلةٍ قبيحة فعلها فَيُعَيَّرُ بها كلما رُئِيَ، سواء ذلك على سبيل المزاح أو الجِدّ، أما ما كان فيه صفة المدح فلا بأس به، ولهذا كانت التكنية من السنة والأدب الحسن، وقد لُقِّبَ أبو بكر بالعتيق الصديق، وعُمَر بالفاروق، وحمزة بأسد الله، وخالد بسيف الله.

وسبب نزول الآية ما أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» عن أبي جبيرة بن الضحاك قال: فينا نزلت في بني سلمة ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ﴾ قال: قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة وليس منا رَجُلٌ إلا وله اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دُعِيَ أَحدٌ منهم باسم من تلك الأسماء، قالوا: يا رسول الله، إنه يغضب من هذا، فنزلت: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ﴾ أي بئس أن يسمى الإنسان فاسقاً بعد أن صار مؤمناً، قال البيضاوي: وفي الآية دلالة على أن التنابز فِسق والجمع بينه وبين الإيمان مستقبح[٤].

---

(١) «المفردات» للأصفهاني (٤٥٢).
(٢) «تفسير الطبري» (٢٦/ ١٣٣).
(٣) «الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد» (١٨/ ٢٨٤).
(٤) «تفسير البيضاوي» (٣/ ٣٧٣).

وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي من لم يتب عن اللمز والتنابز فأولئك هم الظالمون بتعريض أنفسهم للعذاب(1).

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾(2).

هذه الآية الكريمة اشتملت على النداء(3) الخامس والأخير في هذه السورة الكريمة، وهي تقرر مبدأً هاماً في أصول الأخلاق الاجتماعية في الإسلام، ويمكن أن نلخص ما جاء في هذه الآية الكريمة من مكارم الأخلاق التي هي أساس شخصية الفرد المسلم:

أولاً: النهي عن سوء الظن بالمسلم.

ثانياً: النهي عن التجسس وتتبع عورات المسلم.

ثالثاً: النهي عن الغيبة التي لا يخفى على القارىء الكريم خطرها على المجتمع.

وقوله تعالى: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ والظن: هو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله، وقد ابتُلِيَ بهذا الخُلُق الذميم كثير من الناس فظنوا بالآخرين سوءاً فوقعوا بالآثام، ناسين ما للمؤمن عند الله من حُرمة، فلقد صان الحق تبارك وتعالى المسلم وحَفِظَ له دمه وعرضه

---

(1) «صفوة التفاسير» للشيخ الصابوني (3/ 235).
(2) الحجرات: الآية 12.
(3) أي النداء بـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

وماله، فقد روى ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: «رأيت النبي ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك، والذي نفس محمد بيده، لحرمة المؤمن أعظم عند الله حُرمَةً منك، ماله ودمه وأن يُظَنَّ به إلا خيراً»[(١)].

وقد جاءت الآية الكريمة تشير إلى اجتناب كثير من الظن، وفي ذلك تنبيه للمسلم لكي يحتاط في كل ظن ولا يسارع فيه، بل يتأمل ويتحقق حتى لا يقع في الإثم والحرج، لأن بعض ذلك الظن يكون إثماً محضاً، فليتجنب كثيراً منه تحوطاً.

والعلة في تحريم الظن بالناس، هو أن أسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب، فليس لأي إنسان أن يعتقد في غيره سوءاً إلا إذا انكشف له ذلك بشكل واضح لا يقبل التأويل، وما لم يشاهده بعينه ولم يسمعه بأذنه فينبغي أن يتحرز منه، فإنما هو من الشيطان.

وقوله: ﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ﴾ أي فيما يتعلق بظن المؤمن بأخيه الشر لا الخير (إِثۡمٌ) أي مكسب للإثم والذنب، ويعرض صاحبه للمحاسبة، قال الفاروق رضي الله عنه: (لا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيراً وأنت تجد لها في الخير محملاً)، فإن للمؤمن حرمةٌ، فمن عُرِفَ بالصلاح، وأُنِست فيه الأمانة والإخلاص، وشوهد منه العمل الخالص، فلا يجوز قطعاً أن يُظَنَّ به سوءٌ لمجرد شبهة لا يقوم معها دليل وليس معها تعليل.

(١) رواه الترمذي (٣/ ٣٧٨) وابن ماجه (٢/ ١٢٩٧) واللفظ له.

أما المجاهر بالمعاصي فلا يحرم سوء الظن به، وإن لم يره الظانّ على معصيته، لأنه مكَّن من صفحته وأزال حُرمَةَ عِرضِهِ[١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ معنى التجسس: ألاّ يترك عباد الله تحت ستر الله فيتوصل إلى الإطلاع وهتك الستر بالتجسس والتحسس والتنقيب عن أحوالهم الخفية المستورة، حتى ينكشف له ما لو كان مستوراً عنه كان أسلم لقلبه ودينه، ومناسبة ذكر التجسس بعد النهي عن سوء الظن، أنه لما كان من ثمرات سوء الظن التجسس، فإن القلب لا يقنع بالظن ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس.

ولذلك ذكر سبحانه النهي عنه إثر سوء الظن، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾[٢].

قال ابن جرير: أي لا يتبع بعضكم عورة بعض، ولا يبحث عن سرائره يبتغي بذلك الظهور على عيوبه، ولكن اقنعوا بما ظهر لكم من أمره، وبه فامدحوا أو ذموا، لا على ما لا تعلمونه من سرائره[٣].

والتجسس غالباً يطلق في الشر، ومنه الجاسوس وهو الشرير، أما التحسس فيكون غالباً في الخير، كما قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾[٤].

وقد استعمل كل منهما في الشر، كما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٢١٢).
(٢) انظر تفسير القاسمي (١٥/ ١٣١).
(٣) انظر تفسير الطبري (٢٦/ ١٣٥).
(٤) سورة يوسف آية (٨٧).

رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تناجشوا[١]، وكونوا عباد الله إخواناً»[٢].

فالتجسس المنهيُّ عنه هو البحث عن عورات الناس وذنوبهم المستترة التي فعلوها مستترين لا تتعدى شرها للغير، ولا ضرر فيها على غيرهم.

أخرج الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: صعد رسول الله ﷺ المنبر، ونادى بصوت رفيع حتى أسمع العواتق في خدورهن: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يفض - أي «يصل» - الإيمان إلى قلبه، لا تؤذوا المسلمين» وفي رواية «لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يوشك أن يفضحه ولو في جوف رحله»[٣].

وفي رواية «في قعر بيتٍ»[٤].

وأخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من اطّلع في بيت قوم بغير إذنهم فقد حلّ لهم أن يفقؤوا عينه»[٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ﴾ قد يتساءل البعض لماذا جيء بتحريم الغيبة عقب تحريم التجسس؟ أقول - والله أعلم - إن المتجسس ينكشف له بالتجسس على عورات الناس بعض شؤونهم التي سترها الله

---

(١) التناجش: التزايد في البيع وغيره. القاموس (نجش).
(٢) رواه مسلم (٤/ ١٩٨٥).
(٣) «سنن الترمذي» (٤/ ٣٧٨).
(٤) «سنن أبي داود» (٩٠).
(٥) «صحيح مسلم» (٣/ ١٦٩٩) كتاب الآداب.

عليهم، وبعد ذلك يشيع ذلك المتجسس بين الناس ما رآه وسمعه دون علمهم، فلا تكون الغيبة غالباً إلا بعد التجسس والتتبع لعورات الناس وهفواتهم، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾.

والغيبة: أن يذكر الإنسان أخاه المسلم بما يكره، سواء أكان ذلك صراحة أم إشارة أم رمزاً أم كتابة، وسواءأ كان ما اغتابه به متعلقاً بدينه أم دنياه، بخَلْقِهِ أم خُلُقِهِ، وسواء أكان متصلاً به مباشرة أم بمن يلوذ به من الزوجة والأولاد، وتزداد الغيبة شناعة وقبحاً إذا كانت فيمن عُرِفَ بالعلم والصلاح هذا، وقد عَرَّفَ النبي ﷺ الغيبة في أوضح صورة، كما ثبت ذلك في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذكرُكَ أخاك بما يكره» قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بَهَتَّهُ»[١].

قال الحافظ ابن كثير[٢]: (والغيبة محرمة بالإجماع، ولا يستثنى من ذلك إلا ما رجحت مصلحته كما في الجرح والتعديل والنصيحة، كقوله ﷺ لما استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر[٣]: «ائذنوا له فبئس ابن العشيرة» أو: «بئس رجل العشيرة»[٤].

وكقوله ﷺ لفاطمة بنت قيس رضي الله عنها وقد خطبها معاوية وأبو

---

(١) صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (٤/ ٢٠٠١).
(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٢١٤).
(٣) واسمه عيينة بن حصن.
(٤) صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (٤/ ٢٠٠٢).

الجهم: «أما معاوية فصعلوك، وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه»[(١)].

فقوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي: لا يذكر بعضكم بعضاً بالسوء في غيبته بما يكره، وقد مثَّلَ الحقُّ تبارك وتعالى الغيبة في كتابه العزيز بأشنع وأقبح صورة بما لا مزيد عليه من التقبيح والشناعة، قال تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ إن الإنسان بفطرته التي فطره الله عليها يكره أن يأكل اللحم الإنساني، فإذا كان ذلك الإنسان أخاً له فإنه من باب أولى سيزداد كراهية لذلك اللحم الإنساني، الذي تبين له أنه لحم لأخيه أو صديقه، ثم إنه إذا كان الإنسان السوي يكره أن يأكل لحم الضأن أو العجل إذا كان ميتاً لعلمه وتيقنه بضرر أكل الميتة، فإن الصورة ستزداد قبحاً وشناعة إذا كان ذلك اللحم الإنساني لم يكن لحم إنسي فقط، بل لحم أخ له، فضلاً عن أنه ميتٌ فإنه يرفض كل الرفض، ويُصرُّ كل الإصرار، حتى لو دفع ذلك الأمر ثمناً لحياته، فإنه لا يأكل ذلك اللحم، وقد تبين له أنه إنسيٌّ، فضلاً عنه أنه أخٌ له، فضلاً عن أنه ميتٌ.

وقوله تعالى: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أي: كما كرهتم ذلك الأكل طبعاً، فإنه يجب عليكم أن تكرهوا الغيبة شرعاً بمثل تلك الكراهية أو أشد.

وللألوسي رحمه الله نكات بلاغية هي في غاية الأهمية لا بد من الإشارة إليها إتماماً للفائدة.

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ تمثيلٌ لما يصدر عن

---

(١) «صحيح مسلم» تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي (٢/ ١١٤).

المغتاب من حيث صدوره عنه، ومن حيث تعلقه بصاحبه على أفحش وجه وأشنعه طبعاً وعقلاً وشرعاً مع مبالغات من فنون شتى:

١ـ إسناد الفعل إلى (أحد) إيذاناً بأن أحداً من الآحدين لا يفعل ذلك.

٢ـ تعليق المحبة بما هو في غاية الكراهية.

٣ـ تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان.

٤ـ جعل المأكول أخاً للآكل وميتاً.

٥ـ تعقيب ذلك بقوله تعالى: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ حملاً على الإقرار، وتحقيقاً لعدم محبة ذلك...

٦ـ كنى عن الغيبة بأكل الإنسان لِلَحم مثله، لأنها ذكر المثالب وتمزيق الأعراض المماثل لأكل اللحم بعد تمزيقه في استكراه العقل والشرع له.

٧ـ جعله ميتاً لأن المغتاب لا يشعر بغيبته.

٨ـ وَصْلُه بالمحبة لما جبلت عليه النفوس من الميل إليها (الغيبة) مع العلم بقبحها.

٩ـ حرف الفاء في قوله: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ فصيحة في جواب شرط مقدر بـ (قد) أي إن صح هذا أو عرض عليكم، فقد كرهتموه ولا يمكنكم إنكار كراهيته، فاكرهوه كراهيتكم لذلك الأكل[1].

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي خافوا الله وامتثلوا لما قيل لكم بشأن ما تقدم من سوء الظن بعباد الله والتجسس والغيبة.

---

(١) انظر تفسير الألوسي (٢٦/١٥٨ـ١٥٩) بتصرف.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: لمن اتقى واجتنب ما نُهِيَ عنه وتاب مما فرَطَ فيه.

ونلاحظ أن الآية خُتِمَت باسمين من أسمائه الحسنى جلّ وعلا (التواب والرحيم)، والتواب صفة مبالغة في قبول التوبة، والمبالغة إما باعتبار الكيف إذ يُكرِمُ الله سبحانه التائب ويجعله كمن لم يذنب، أو باعتبار الكم لكثرة المتوب عليهم، أو لكثرة ذنوبهم.

الرحيم: الذي وسعت رحمته كل شيء، وفيه حَثٌّ على التوبة وترغيب بالمسارعة إلى الندم والاعتراف بالخطأ، لئلا يقنط الإنسان من رحمة الله عز وجل.

ولما كانت الغيبة من الأمراض الاجتماعية المتفشية بين الناس، رأيت أنه من الفائدة الإشارة إلى ما ورد في السنة المطهرة عنها، فقد أخرج أبو داود عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبُكَ من صفية كذا وكذا... (تعني أنها قصيرة) فقال: «لقد قُلتِ كلمةً لو مُزِجَتْ بماء البحر لمزجته»[١].

وأخرج أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إن من أكبر الكبائر استطالة المرء في عرض رجل مسلم بغير الحق...»الحديث[٢].

وأخرج أبو داود أيضاً عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال

(١) سنن أبي داود (٢/ ٥٦٧).
(٢) سنن أبي داود(٢/ ٥٦٧).

رسول الله ﷺ «لما عُرِجَ بي مررت بقومٍ لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، قُلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم»(١).

وأخرج الإمام أحمد في «مسنده»(٢) عن عُبيد مولى رسول الله ﷺ أن امرأتين صامتا وأن رجلاً قال: يا رسول الله، إن ها هنا امرأتين قد صامتا وإنهما قد كادتا تموتان من العطش، فأعرض عنه أو سكت، ثم عاد وأراه قال بالهاجرة(٣)، وقال يا نبي الله إنهما والله قد ماتتا أو كادتا أن تموتا، قال: ادعهما، قال: فجيء بقدح أو عُسٍّ(٤) فقال لإحداهما: قيئي فقاءت قيحاً ودماً وصديداً ولحماً حتى قاءت نصف القدح، ثم قال للأخرى قيئي فقاءت من قيحٍ ودمٍ وصديدٍ ولحم عبيط(٥) وغيره حتى ملأت القدح، ثم قال: «إن هاتين صامتا عما أحلَّ الله، وأفطرتا على ما حرَّمَ الله عز وجل عليهما، جلست إحداهما إلى الأخرى فجعلتا يأكلان لحوم الناس» أي يغتابان الناس بكلامهما، وهذا هو شأن وحال كثير من النساء (نسأل الله لنا ولهن العفو والسلامة) فإنهن يجعلن مجالسهن كلها غيبة ونميمة إلا من رحم الله، وكفى بهذا الحديث زجراً وتحذيراً لهن.

وأخرج أبو داود بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه: جاء الأسلمي إلى نبي الله ﷺ فشهد على نفسه أنه أصاب امرأة حراماً، أربع مرات، كل ذلك

(١) «سنن أبي داود» (٢/ ٥٦٨).
(٢) «الفتح الرباني» مع شرحه «بلوغ الأماني» (٩/ ٧٧).
(٣) الهاجرة: أي وقت اشتداد الحر نصف النهار.
(٤) عُس: بضم العين وتشديد السين، هو القدح العظيم.
(٥) لحم عبيط: الطري غير النضيج.

يُعرِضُ عنه النبي ﷺ، فأقبل في الخامسة فقال له ﷺ: «أنكتها؟» قال: نعم، قال: «حتى غاب ذلك منك في ذلك منها؟» قال: نعم، قال: «كما يغيب المِرْوَدُ في المكحلة والرشاء في البئر؟» قال: نعم، قال: «هل تدري ما الزنا؟» قال: نعم، أتيت منها حراماً ما يأتي الرجل من امرأته حلالاً، قال: «فما تريد من هذا القول؟» قال: أريد أن تطهرني، فأمر به فَرُجِمَ، فسمع النبي ﷺ رجلين من أصحابه يقول أحدهما لصاحبه: انظر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رُجِمَ رجم الكلب، فسكت عنهما، ثم سار ساعة، حتى مَرَّ بجيفة حمار شائل برجله فقال: «أين فلان وفلان؟» فقالا: نحن ذان يا رسول الله، قال: «انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار»، فقالا: يا نبي الله، من يأكل من هذا؟ قال: «فما نلتما من عرض أخيكما آنفاً أشد منه، والذي نفسي بيده إنه لفي أنهار الجنة ينغمس فيها»[١].

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[٢].

هذه الآية الكريمة تقرر أصلاً من أصول الإسلام العظيمة، وهو مبدأ المساواة بين الناس الذين اختلفت أجناسهم وألوانهم وشعوبهم، فالآية معجزة من معجزات هذا القرآن العظيم، الذي أنزله الله ضياءً للناس، ونوراً يهتدون به، وبرهاناً ساطعاً ينير السبل أمامهم، فهي تقرر وتُعلن المساواة بين البشر، فلا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود، ولا لغني على فقير، ولا لكبير على صغير إلا بالتقوى، فالناس متساوون أصلهم واحد وأبوهم واحد.

---

(١) سنن أبي داود كتاب الحدود (٢/ ٤٥٩).
(٢) الحجرات: الآية ١٣.

والدارس لهذه الآية الكريمة يجد أنها جاءت عقب تلك النداءات الخمسة المتكررة للذين آمنوا، فبعد أن أخذت بالسمو بهم إلى الأفق السامي الوضيء بما دعتهم إليه من الآداب النفسية والاجتماعية فيما بينهم وبين خالقهم، وفيما بينهم وبين بعضهم البعض، جاءت هذه الآية الكريمة لتذكير بني البشر جميعاً على اختلاف أجناسهم وألوانهم بأصلهم الواحد، وميزان التفاضل الإلهي فيما بينهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أي: يا أيها المختلفون أجناساً وألوانا، المتفرقون شعوباً وقبائل، إنكم من أصل واحد، فلا تختلفوا ولا تتفرقوا ولا تتخاصموا، فالذي يناديكم هذا النداء هو الذي خلقكم من ذكر وأنثى، وهو يطلعكم على الغاية من جعلكم شعوباً وقبائل، إنها ليست للتناحر والخصام إنما هي للتعارف والوئام، فأما اختلاف الألسنة والألوان واختلاف الطباع والعادات واختلاف المواهب والاستعدادات، فهو تنوع لا يقتضي النزاع والشقاق، بل يقتضي التعاون للنهوض بجميع التكاليف، والوفاء بجميع الحاجات وليس للون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعاني من حساب في ميزان الله، إنما هناك ميزان واحد تتحد به القيم ويعرف به فضل الناس ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ والكريم حقاً هو الكريم عند الله، وهو يُقيمكم عن علم وخبرة بالقيم والموازين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾، وهكذا تسقط جميع الفوارق ويرتفع ميزان واحد بقيمة واحدة.

وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والخصومات في الأرض، ويرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته، لواء التقوى، وهذا هو اللواء الذي رفعه الإسلام لينقذ البشرية من عصبية الجنس وعصبية الأرض وعصبية القبيلة، وكلها من الجاهلية البعيدة عن الإسلام، وقد حارب الإسلام

الجاهلية في كل صورها وأشكالها ليقيم نظامه الإنساني العالمي في ظل راية واحدة راية لا إله إلا الله، لا راية الوطنية، ولا راية القومية، ولا راية الجنسية، فكلها رايات زائفة لا يعرفها الإسلام[١].

أخرج مسلم في «صحيحه» عن سفيان بن عيينة قال سمع عمرو جابر بن عبد الله يقول: كنا مع النبي ﷺ في غزاة فكسع[٢] رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار!! وقال المهاجري: يا للمهاجرين!! فقال رسول الله ﷺ: «ما بال دعوى الجاهلية.. دعوها فإنها منتنة»[٣].

ومعنى قوله: «ما بال دعوى الجاهلية» تسميته ﷺ ذلك دعوى الجاهليةِ هو كراهةٌ منه لذلك، فإنه مما كانت عليه الجاهلية من التعاضد بالقبائل في أمور الدنيا ومتعلقاتها، وكانت الجاهلية تأخذ حقوقها بالعصبات والقبائل، فجاء الإسلام بإبطال ذلك، وفصل القضايا بالأحكام الشرعية.

أخرج البخاري بسنده عن واصل الأحدب، عن المعرور، قال: لقيت أبا ذرٍّ بالربذة[٤] وعليه حلة، وعلى غلامه حلة[٥]، فسألته عن ذلك فقال: إني ساببت رجلاً فعيرته بأمه، وفي رواية: قلت له: يا ابن السوداء[٦]،

---

(١) انظر (بتصرف) «ظلال القرآن» لسيد قطب (٧/ ٥٣٧).
(٢) الكسع أن تضرب بيدك أو رجلك بصدر قدمك على دبر إنسان. انظر «لسان العرب» لابن منظور (٩/ ٣٠٩).
(٣) رواه مسلم (٤/ ١٩٩٨) ومعنى منتنة: أي قبيحة وكريهة ومؤذية.
(٤) موضع بالبادية بينه وبين المدينة ثلاث مراحل.
(٥) الحلة: ثوبان من جنس واحد.
(٦) «صحيح البخاري» وعلى هامشه «فتح الباري» (١/ ٩٤).

فقال لي النبي ﷺ: «يا أبا ذر، أعيَّرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية» الحديث[١].

قال البغوي (رحمه الله) في قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ يعني آدم وحواء، أي: أنكم متساوون في النسب.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا﴾ جمع شعب بفتح الشين، وهي رؤوس القبائل مثل ربيعة ومضر والأوس والخزرج.

وقوله تعالى: ﴿وَقَبَآئِلَ﴾ وهي دون الشعوب، واحدتها قبيلة وهي كبكر من ربيعة، وتميم من مضر، ودون القبائل العمائر، واحدتها عَمارة بفتح العين، وهم كشيبان من بكر، ودارم من تميم، ودون العمائر البطون واحدتها بطن، وهم كبني غالب، ولؤي من قريش، ودون البطون الأفخاذ واحدتها فخذ، وهم كبني هاشم وأمية من بني لؤي، ثم الفصائل والعشائر واحدتها فصيلة وعشيرة وليس بعد العشيرة حي يوصف به.

وقيل: الشعوب من العجم، والقبائل من العرب، والأسباط من بني إسرائيل[٢].

وروي في سبب نزول هذه الآية أنها نزلت في ثابت بن قيس وفي الرجل الذي لم يفسح له[٣].

وقال الواحدي في «أسباب النزول»: قال ابن عباس: نزلت في ثابت

---

(١) انظر «فتح الباري» (١/ ٩٤).

(٢) تفسير البغوي «معالم التنزيل» (٧/ ٣٤٧ـ٣٤٨) للإمام محيي السنة أبي محمد الحسين البغوي.

(٣) انظر ص ٨٦ من بحثنا هذا.

ابن قيس وقوله في الرجل الذي لم يفسح له: ابن فلانة، فقال رسول الله ﷺ «من الذاكر فلانة؟» فقام ثابت فقال: أنا يا رسول الله، فقال: «انظر في وجوه القوم» فنظر فقال: «ما رأيت يا ثابت؟» قال: رأيت أبيض وأحمر وأسود، قال: «فإنك لا تَفْضُلهُم إلا في الدين والتقوى» فأنزل الله تعالى هذه الآية ا. هـ[١].

وفي رواية أخرى قال مقاتل: لما كان يوم فتح مكة أمر رسول الله ﷺ بلالاً حتى أذن على ظهر الكعبة، فقال عتاب بن أسيد بن أبي العيص: الحمد لله الذي قبض أبي حتى لم ير هذا اليوم، وقال الحارث بن هشام: أما وجد غير هذا الغُراب الأسود مؤذناً!.

وقال سهيل بن عمرو: إن يرد الله شيئاً يغيره.

وقال أبو سفيان: إني لأقول شيئاً أخاف أن يخبر به رب السماء.

فأتى جبريل عليه السلام النبي ﷺ وأخبره بما قالوا فدعاهم وسألهم عما قالوا، فأقروا، فأنزل الله تعالى هذه الآية وزجرهم عن التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال والازراء بالفقراء ا هـ[٢].

وقيل غير ذلك، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

---

(١) «أسباب النزول» للواحدي بتحقيق السيد أحمد صقر (٤١٧). قال ابن حجر في تخريج أحاديث «الكشاف» (٤/ ٣٧٠): ذكر عن ابن عباس بدون إسناد، وانظر «زاد المسير» (٧/ ٤٧٣).

(٢) «أسباب النزول» للواحدي بتحقيق السيد أحمد صقر (٤١٧). «الدر المنثور» للسيوطي (٦/ ١٠٧)« زاد المسير» (٧/ ٤٧٣).

فأكرم خلق الله على الله تعالى هو أتقاهم لله تعالى، ولا شك أن رسول الله ﷺ أتقى الأولين والآخرين وأفضلهم.

جاء في الحديث عن أنس رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادته... الحديث، إلى أن قال ﷺ: «أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له...» الحديث[١].

وروى مسلم في «صحيحه» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مُشَفَّع»[٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾: أي بظواهركم وبواطنكم، وبالأتقى والأكرم منكم، وغير ذلك فهو لا يخفى عليه خافية[٣].

وروى مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[٤].

وقوله تعالى: ﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٥].

---

(١) رواه البخاري (٦/ ١١٦) باب النكاح.
(٢) رواه مسلم (٤/ ١٧٨٢) حديث رقم (٢٢٧٨) كتاب الفضائل.
(٣) انظر (بتصرف) «محاسن التأويل» للشيخ محمد جمال الدين القاسمي (١٥/ ١٣٥).
(٤) محمد فؤاد عبد الباقي حديث رقم (٢٥٦٤)، (٤/ ١٩٨٧).
(٥) الحجرات: الآية ١٤.

الأعراب: اسم لسكان البادية وجمعه أعاريب[١].

والإسلام هو الاستسلام لله والخضوع له، والعبودية لله وحده والخلوص من الشرك.

أما الإيمان: فهو القول باللسان والتصديق بالجنان والعمل بالأركان.

ومعنى الآية: أن الأعراب زعموا أنهم آمنوا، فأمر الله نبيه صلوات الله وسلامه عليه أن يخبرهم قائلاً لهم: إنكم لم تؤمنوا بعد، لأن الإيمان تصديق مع ثقة واطمئنان قلب ولم يحصل لكم ذلك، وإلا لما مننتم على الرسول بالإسلام وترك المقاتلة، ولكن قولوا استسلمنا خوف القتل والسبي.

قال جمهور المفسرين: (نزلت هذه الآية في نفر من بني أسد قدموا المدينة في سنة مجدبة وأظهروا الشهادتين، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ: أتيناك بالأثقال والعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وفلان، يريدون الصدقة ويمنون على الرسول)[٢].

وقد دلت الآية الكريمة على أن الإيمان مرتبة أعلى من الإسلام الذي هو الاستسلام والانقياد بالظاهر، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ و(لم) و(لما) حرفا نفي يجزمان الفعل المضارع ويغيران معناه من الاستقبال إلى الماضي[٣].

---

(١) «المفردات» للراغب الأصفهاني (٣٢٨).
(٢) انظر تفسير القرطبي (١٦/٣٤٨)، البغوي (٧ / ٣٤٩)، «زاد المسير» (٧/٤٧٦) لابن الجوزي، ابن كثير (٤/٢١٩).
(٣) تفسير الرازي (٢٨/ ١٤١).

ولفظة (لما) تفيد التوقع، ومعنى الآية: أي لم يدخل الإيمان إلى قلوبكم ولم تصلوا إلى حقيقته بعد، وسيحصل لكم الإيمان عند اطلاعكم على محاسن الإسلام وتذوقكم لحلاوة الإيمان[١].

قال الحافظ ابن كثير: (هؤلاء الأعراب المذكورون في هذه الآية ليسوا بمنافقين، وإنما هم مسلمون، لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فادَّعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه، فأدبوا في ذلك.. ولو كانوا منافقين لعُنِّفُوا وفُضِحوا، وإنما قيل لهم تأديباً: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد)[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ أي وإن أطعتم الله ورسوله فيما شرعه لكم مع الإخلاص والإيمان الكامل وعدم المنِّ على الرسول ﷺ لا ينقصكم من أجوركم شيئاً.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَلِتْكُم﴾ كقوله عز وجل: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾[٣] أي: ما أنقصناهم من عملهم من شيء.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: عظيم المغفرة، واسع الرحمة، لأن صيغة فعول و فعيل تفيد المبالغة.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾[٤].

---

(١) انظر «صفوة التفاسير» للشيخ الصابوني (٣/ ٢٣٧).
(٢) تفسير ابن كثير(٤/ ٢١٩).
(٣) الطور: الآية ٢١.
(٤) الحجرات: الآية ١٥.

في هذه الآية الكريمة بيان وإرشاد للأعراب خاصة، وللأمة بأكملها عامة، لصفات المؤمنين الكُمَّل الصادقين في إيمانهم، الذين وصفهم الله عز وجل في هذه الآية بثلاث صفات:

الأولى: التصديق الجازم بالله ورسوله كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

الثانية: عدم الشك والارتياب، قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾.

الثالثة: الجهاد بالمال والنفس قال تعالى: ﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

فمن جمع هذه الأوصاف فهو المؤمن الصادق في إيمانه.

وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ أي: أولئك المتصفون بتلك الصفات الثلاث هم الصادقون في إيمانهم وسلوكهم، والجملة تفيد الحصر أي هم الصادقون لا غيرهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾[١].

الاستفهام للإنكار والتوبيخ، والتعليم ها هنا بمعنى الإعلام والإخبار، أي: قل لهم يا محمد (صلوات الله وسلامه عليك) أتخبرون الله بما في ضمائركم وقلوبكم؟.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: هو جلَّ وعلا العليم بجميع أحوال العباد، ولا يحتاج إلى إخباركم، فهو لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء[٢].

---

(١) الحجرات الآية ١٦.

(٢) انظر «صفوة التفاسير» باختصار وتصرف (٣/ ٢٣٨).

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: واسع العلم، رقيب على كل شيء، لا يَعْزُب عنه مثقال ذرة ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء.

قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟﴾(١).

أي: يعدون إسلامهم عليك يا محمد (صلوات الله وسلامه عليك) مِنَّةً يستوجبون عليها الحمد والثناء وفي الآية الكريمة لطائف تفسيرية جديرة بالتفكر:

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ﴾ زيادة بيان لقبيح فعلهم، وذلك لأن الإيمان له شرفان (أحدهما) بالنسبة إلى الله تعالى وهو تنزيه الله عن الشرك وتوحيده في العظمة، (وثانيهما) بالنسبة إلى المؤمن، فإنه ينزه النفس عن الجهل، ويزينها بالحق والصدق، فهم (أي الأعراب) لا يطلبون بإسلامهم جانب الله، ولا يطلبون شرف أنفسهم، بل مَنُّوا، ولو علموا أن فيه شرفهم لما منوا به بل شكروا.

اللطيفة الثانية: قال تعالى: ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم﴾ أي: الذي عندكم إسلام، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ ولم يقل: لم تؤمنوا ولكن أسلمتم لئلا يكون تصديقاً لهم في الإسلام أيضاً كما لم يصدقوا في الإيمان، فلو أن الله تبارك وتعالى قال لهم: «قل لم تؤمنوا ولكن أسلمتم» لكان في ذلك إشارة إلى إسلامهم ولكن قال تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ فحتى إسلامهم كان مجرد قول، لأن المسلم «من سَلِمَ المسلمون من لسانه

(١) الحجرات الآية ١٧.

ويده»[١] فالرسول ﷺ لم يسلم من لسانهم، فجاؤوا يمنون عليه بقولهم: أتتك العرب بأنفسها على ظهور رواحلها، وجئناك بالأثقال والعيال والذراري، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وفلان، وأيضاً لم يسلم أهل المدينة من أذاهم حيث إنهم أفسدوا طرق المدينة بالعذرات وأغلوا أسعارها، كما ورد ذلك في سبب النزول[٢].

اللطيفة الثالثة: أن الله تعالى قال: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ قد يتساءل إنسان كيف مَنَّ عليهم بالهداية للإيمان مع أنه بنى أنهم لم يؤمنوا؟ والجواب: أنه تعالى بنى بعد ذلك شرطاً لهدايتهم فقال: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: في دعوى إسلامكم[٣].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[٤].

سبق أن ذكرت في مقدمة السورة[٥] أنها ختمت بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد، فمن التزم بما جاء في السورة من الآداب والتعاليم فاز ونجا، ومن خالفها خاب وخسر، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فالآية رد على ما جاء في أولها من عدم تقديم أيِّ أمرٍ أو أيِّ رأيٍ على أمر الله ورسوله ﷺ، وهو ما يسمى عند البلاغيين (رد العجز على الصدر أو اتفاق الخاتمة مع الفاتحة) فيأمر الحق عباده أن يخافوه، وذلك بالمداومة على تقواه واتباع أوامره، فإنه يعلم ما

---

(١) «صحيح مسلم» تحقيق فؤاد عبد الباقي (١/ ٦٥).
(٢) انظر سبب نزول الآية في تفسير البغوي (٧/ ٣٤٩).
(٣) انظر التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي (٢٨/ ١٤٤).
(٤) الحجرات: الآية ١٨.
(٥) انظر صفحة ٥٠ من بحثنا هذا.

يصدر منهمْ في السر والعلن والظاهر والباطن، ونلاحظ تكرار الإخبار بعلمه في هذه الآية بجميع الكائنات، وإحاطته بجميع المخلوقات، ليدل على سعة علمه وشموله لكل صغيرة وكبيرة.

* * *

الخاتمة

وأخيراً، وفي الختام، أبتهل إلى الله العلي القدير أن يفيض علينا من بركات القرآن، ولا يحرمنا من خيراته وأن يرزقنا تدبره وفهمه وتلاوته آناء الليل وأطراف النهار.

اللهم أفض علينا من واسع علمك ما تُبلِّغنا به الزيادة في خشيتك، والمداومة على طاعتك، وعدم الإنقطاع عن ذكرك آناء الليل وأطراف النهار، إنك سميع مجيب.

وأن يغفر الله لنا ولوالدينا ولأهلينا ولمشايخنا، ولجميع المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات.

(سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم) سبحان ربِّك ربِّ العزَّة عما يصفون، وسلامٌ على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

وصلى الله على سيدنا محمد و آله وصحبه وسلم،،،

* * *

فهرس المصادر والمراجع

- الإتقان في علوم القرآن ـ السيوطي. ط. مصطفى البابي الحلبي. مصر.
- أحكام القرآن ـ ابن العربي. ط. السعادة. مصر.
- الأدب المفرد ـ الإمام البخاري. ط. السلفية. مصر.
- أساس البلاغة ـ الزمخشري. ط. دار صادر. بيروت.
- أسباب النزول ـ الواحدي. ط. مصر.
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ ابن عبد البر. على هامش الإصابة لابن حجر.
- أسد الغابة ـ ابن الأثير. ط. الشعب. مصر.
- الإسرائيليات ـ د. محمد أبو شهبة. ط. مصر.
- الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير ـ د. رمزي نعناعة. ط. دار القلم. دمشق.
- الإصابة في تمييز الصحابة ـ الحافظ ابن حجر العسقلاني. ط. مكتبة الكليات الأزهرية. مصر.
- الأعلام ـ الزركلي. ط. دار العلم للملايين. بيروت.
- الإيضاح ـ القزويني. ط. مكتبة المثنى. بيروت.
- البرهان في علوم القرآن ـ الزركشي. ط. مصر.

- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز - الفيروز آبادي. ط. المكتبة العلمية. بيروت.
- التبيان - الطيبي.
- تفسير الألوسي (روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني). ط. دار إحياء التراث العربي. بيروت.
- تفسير البغوي (معالم التنزيل). دار المعرفة. بيروت.
- تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل). ط. مصر.
- تفسير الرازي (مفاتيح الغيب). ط. طهران.
- تفسير الزمخشري (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل). ط. بيروت.
- تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم). ط. دار إحياء التراث العربي. بيروت.
- تفسير الشوكاني (فتح القدير). د. دار الفكر. بيروت.
- تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل القرآن). ط. مصطفى البابي الحلبي. مصر.
- تفسير القاسمي (محاسن التأويل). ط. دار الفكر. بيروت.
- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن). دار الكتب المصرية. مصر.
- تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم). د. دار الفكر. بيروت. وط. دار القلم. بيروت.
- تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل). ط. دار الكتاب العربي. بيروت.
- التفسير والمفسِّرون - د. محمد حسين الذهبي. ط. دار الكتب الحديثة. القاهرة.

- تهذيب التهذيب - الحافظ ابن حجر العسقلاني. ط. مؤسسة الرسالة. بيروت.
- تهذيب الكمال في أسماء الرجال - الحافظ المزي. ط. مؤسسة الرسالة. بيروت.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - أبو نعيم الأصفهاني. ط. مطبعة السعادة. مصر.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور - السيوطي. ط، دار المعرفة. بيروت.
- الرسالة المستطرفة - السيد محمد جعفر الكتاني. ط. دار المعرفة. بيروت.
- زاد المسير في علم التفسير - ابن الجوزي. ط. المكتب الإسلامي. بيروت.
- سنن البيهقي. ط. مجلس دائرة المعارف. الهند.
- سنن الترمذي. ط. دار إحياء التراث العربي. بيروت. وط. مصطفى البابي الحلبي. مصر.
- سنن أبي داود. ط. حمص. بتحقيق عزة الدعاس وعادل السيد.
- سنن ابن ماجه. دار إحياء الكتب العربية. بيروت.
- سنن النسائي. دارر إحياء التراث العربي. بيروت.
- سير أعلام النبلاء - الحافظ الذهبي. ط. مؤسسة الرسالة. بيروت.
- سيرة ابن هشام. ط. مصطفى البابي الحلبي. مصر.
- صحيح البخاري. ط. دار إحياء التراث العربي. بيروت.
- صحيح مسلم. ط. دار إحياء التراث العربي. بيروت.
- صفوة التفاسير - الشيخ علي الصابوني.
- علوم القرآن الكريم - د. نور الدين عتر. مطبعة الصباح. دمشق.
- الفتح الرباني - الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا. ط. دار الحديث. القاهرة.

ـ في ظلال القرآن ـ سيد قطب . د . دار الشروق . بيروت .

ـ القاموس المحيط ـ الفيروزآبادي . ط . مؤسسة الرسالة . بيروت .

ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ـ مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة . ط . مكتبة المثنى . بيروت .

ـ لسان العرب ـ ابن منظور . ط . دار صادر . بيروت .

ـ مجموع فتاوى ابن تيمية . ط . الرياض .

ـ المستدرك على الصحيحين ـ الحاكم النيسابوري . ط . مكتبة النصر الحديثة . الرياض .

ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل . ط . المكتب الإسلامي . بيروت .

ـ المفردات في غريب القرآن ـ الراغب الأصفهاني . ط . دار المعرفة . بيروت . وط . دار القلم . دمشق .

ـ مقدمة في أصول التفسير ـ ابن تيمية . ط . مؤسسة الرسالة . بيروت .

ـ مناهل العرفان في علوم القرآن ـ عبد العظيم الزُرقاني . ط . دار الكتب العلمية . بيروت .

ـ نزهة الناظرين في مسجد سيد الأولين والآخرين ـ السيد البرزنجي . ط . بيروت .

ـ وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى ـ السمهودي . ط . دار إحياء التراث العربي . بيروت .

* * *

فهرس الأعلام المُترجم لهم

الإسم	الصفحة
ثابت بن قيس بن شمّاس	٦٢
الحسن البصري	١٣
الراغب الأصفهاني	١٥
سعيد بن جُبير	١٣
سعيد بن المسيب	١٤
سهيل بن أبي حزم	٢٠
عامر بن شَراحيل (الشعبي)	٢٢
عبد الله بن عباس	١٢
عبد الله بن عُبيد الله بن أبي مُليكة	١٩
عبد الله بن مسعود	١٢
عطاء بن أبي رباح	١٣
عكرمة مولى ابن عباس	١٣
القاسم بن سلاّم (أبو عُبيد)	٩
قتادة بن دِعامة السدوسي	١٧
مجاهد بن جبْر	١٢
مسروق بن الأجدع	١٤
الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيط	٧٦

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
١ـ تعريف التفسير والفرق بينه وبين التأويل	٨
٢ـ الحاجة إلى علم التفسير	١٠
٣ـ أوجه التفسير	١٠
٤ـ ما هي أحسن طرق التفسير؟	١١
٥ أقسام التفسير	١٤
٦ـ التفسير بالمأثور	١٥
٧ـ التفسير بالرأي و الاجتهاد	١٨
٨ـ العلوم التي يجب على المفسر معرفتها	٢٣
٩ـ جواز التفسير بالرأي والاجتهاد	٢٥
١٠ـ المنهج القويم في تفسير القرآن الكريم	٢٦
١١ـ مناهج التفسير وأهم كتب التفسير	٢٨
١٢ـ كتب التفسير بالمأثور	٢٨
١٣ـ كتب جمعت بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي	٣١
١٤ـ نظره مجملة في أشهر كتب التفسير بالرأي والاجتهاد	٤١
١٥ـ تفسير سورة الحجرات	٤٦

١٦ـ أهداف البحث ٤٧
١٧ـ بين يدي السورة ٤٩
١٨ـ الخاتمة ١١٢
١٩ـ فهرس المصادر والمراجع ١١٣
٢٠ـ فهرس الأعلام ١١٧
٢١ـ فهرس الموضوعات ١١٨

* * *